جمعية البلاغ الثقافية
Al-Balagh Cultural Association

يوسف «عليه السلام» في بيت العزيز

بصائر قرآنية من مدرسة يوسف عليه الصلاة والسلام

أ.د./ عبد السلام المجيدي

يوسف «عليه السلام» في بيت العزيز

(بصائر قرآنيـة من مدرسة يوسف عليه الصلاة والسلام)

تأليف
أ.د/ عبد السلام المجيدي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: Legal Deposit No/ 2018 / 691

الرقم الدولي (ردمك): ISBN/978/9927/ 00 / 716 / 3

ترخيص رقم (٢٠١٨/٥)
إدارة الجمعيات والمؤسسات الخاصة
وزارة التنمية الإدارية والعمل والشؤون الاجتماعية

جميع الحقوق محفوظة
لجمعية البلاغ الثقافية

الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ - ٢٠١٨م

يوسف «عليه السلام» في بيت العزيز

(بصائر قرآنيـة من مدرسة يوسف عليه الصلاة والسلام)

تأليف
أ.د/ عبد السلام المجيدي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن

أ.د/ عبد السلام مقبل المجيدي

مقدمة

الحمد لله الذي منح فأجمل، وأعطى فأجزل، وأنعم فأكمل.. أفاض النعم[1]، وحبا المزيد من الآلاء والكرم.. صبَّ علينا من نعمه السابغة، وآلائه المتتابعة ما لا يوازيه شكر، ولا يدرك كنهه ذكر..

نحمده على مواهب الامتنان، ونستزيده عوائد الإحسان، ونسأله أن يكمل لنا بالرضوان.. نحمده حمدًا نرجو به المزيد، ونستدعي بترديده المنن والتّجديد.. حمدًا يعيد شوارد النّعم، ويستدرّ مواهب الجود والكرم.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي استقامت به أمور البشرية بعد اعوجاجها، وتشرّفت به علماؤها بحسن استنباطها، وجميل استخراجها، وعلى آله وصحبه الذين عَلِموا وعَمِلوا وعَلَّموا وأوضحوا من هذه الملّة قويم منهاجها[2]، وبعد:

هذه قصةٌ بديعةٌ رائعةٌ، ولمحةٌ حقيقيةٌ واقعةٌ من حياة شابٍّ امتلأت حياته بأجمل قصص النجاح، وعُمِرت صحيفته بأضخم الإنجازات وصور الفلاح، وأشرق عمرُه بمشاهد برَّاقةٍ تظهر آيات الرشد والصلاح.

هذه قصةٌ من الحب تتلى ... في حروفٍ فتانةٍ ساحراتِ
هذه باقة من الورد نشوى ... في سماء الهوى بمسكٍ فتاتِ
هذه نسمةٌ شذاها تجلّى ... من أزاهير قلبي العاطراتِ
هذه غَرفةٌ من الحبِّ تسقي ... برِواها ضمائرًا صادياتِ[3]

1- يقال: أفاض الله الخير إذا كثَّره، وأفاض فلان الإناءَ إذا ملأه، وتتعدى بمن وبفي نحو: {أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ} (الأعراف: 50). انظر: تاج اللغة وصحاح العربية 3 /1099، ومعجم مقاييس اللغة 4/465 مادة (فيض).

2- هذه الكلمات المباركة مستقاة من صبح الأعشى في صناعة الإنشاء بتصرف 6 /423.

3- لشاعر الربانية المخبتة/ ناصر الزهراني -ثبته الله-.

ستجد في هذه القصة دراسةً تطبيقيةً لخصائص القصة القرآنية.. سترى هنا الشابَّ **الفتيَّ** النقيَّ يسخر ما حباه الله من الجَمال والجلال، والفتوة والقوة لضرب أعظم المثل في الثبات والتسامي.. يعينه الجمال والقوة على هجر المعصية والفحشاء، وعلى النجاة من فتنة الإغراء والإغواء.. ليزدان بألَق النقاء والصفاء.. فتعالَ لتُنْعِمَ النظر في التصوير القرآني لأفكار هذا الشابِّ وكلماته.. سترى فيه بريقَ الحقِّ وبيناتِه، تزداد به إعجابًا وهو يُخَلِّصُ نفسه من جواذب الهوى ونزواتِه.. ستشاهده يدافع نوازع الغواية ويتجمل بأجنحة الصلاح.. ستشرق عينك وأنت تراه يتزين بزينة الإيمان والهداية.. ومُلِئَ صدره بالإنابة وتلألأ محياه بالانشراح ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾ (الأعراف) ..

من يتَّقِ الله يحمد في عواقبِهِ ... ويكفهِ شرَّ من عزوا ومن هانوا
من استعان بغير الله في طلبٍ ... فإنَّ ناصرَه عجزٌ وخِذلانُ
فاشدُد يديك بحبل الله معتصمًا ... فإنه الركنُ إن خانتك أركانُ[1]

حبال النجاة الإلهية عند انقطاع الأسباب البشرية

تقرأ قصة يوسف -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- فتشعر بمدى العظمة التي كست الكريم ابن الكرام يوسف -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام-.. كيف استطاع النجاح في كل مرحلةٍ من مراحل الحياة، ووفَّى العهد في كل قصةٍ من قصص الابتلاء التي تعرض لها.. كيف ثبت أمام فتنة الإغواء والإغراء التي تبرز مفاتنها للشباب، وتحاول أن تصهرهم ضمن بريقها الخلاب.. ترى في هذه الأيام معظم وسائل الإعلام تقوم عليها **بصورةٍ** صارخةٍ تدعمها كثرةٌ كاثرة كاسرةٌ من مؤسسات الزيف الثقافي وشركات السعار الشهواني ممن حذر الله منهم تحذيرًا بيّنًا عليمًا حكيمًا، مبينًا محبته لخير عباده فقال قولًا كريمًا: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧﴾ (النساء).

1- لأبي الفتح البستي.

أيها السائر على الدرب! تمتد هذه المرحلة من الآية (19) إلى الآية (35) من سورة يوسف –عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام–، وفي هذه المرحلة من حياته نجد التشابه الكبير بين فتوة يوسف وشبابه، وبين معظم شباب الدنيا مع اختلاف في بعض التفاصيل، والملك الجليل يربي الشباب.. فيقول في محكم التنزيل على أبلغ الدروس والعبر التي تشرق بها النفوس والعقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (يوسف:111).

المرحلة العُمْرِية التي تجري فيها القصة ليوسف عليه السلام

تُمثل هذه القصة الرائعة الحلْقة الثانية من حلَقات الحياة في عالم الابتلاء الدنيوي.. إنها الحلْقة العمرية التي تظهر فيها فتنة النضج الجسدي، ويصل الشابُّ إلى مرحلة بلوغ الأشد في الفتوة والقوة والثوران الشبابي، الأحلام والأفكار..

وهي حَلْقةٌ عمرية تعصف برياحها القوية على حياته، فيمتلئ في هذه المرحلة الوقتية الفتية بروح الاستقلال، والثقة المفرطة في شخصيته الذاتية..

وهي مرحلةٌ تمر على معظم شباب الدنيا، إلا أن بعض التفاصيل الحياتية قد تختلف، وإن كانت المعالم الأساسية لها تتفق وتأتلف.. فهي المرحلة الحياتية التي يمتلئ فيها الشباب بالقوة والثوران، ويعتريهم التمرد والهيجان، تراهم يمرون في الدروب والطرقات قد أعجبتهم طاقتهم، وبهرتهم قوتهم، وتنازعتهم وساوس شياطين الجن الخفية، ونفثات قرناء الإنس الردية..

يتعرض هذا الشابُّ لفتنة الإغراء على نحوٍ تحاصره فيه قوى المجتمع المختلفة، يبغون أن يخر أمام أهوائهم جاثيًا، وأن ينغمس في حمأة شهواتهم خاسيًا.. عندها تتراءى أمامه الأحلام، **ويمتلئ عقلُه بالأماني العظام، وتهجم عليه أوابد الأفكار، وشوارد الأوهام،** ويلتبس عليه الحلال والحرام، ويتكسر أمامه الحد الفاصل بين المباحات والآثام، وتتنازعه الغواية والهوى، وربما خطر على باله الاستعفاف وجذبته جواذب التقوى، فهل يكون من

زمرة (ما ضل وما غوى)؟ .. تناديه طريق الأبرار: (**إلى الهدى ائتنا، ليُشكر سعيُك وتبارك خطاك**)، **وتدعوه سُبل الفجار: (أن اتبع سبيلنا ولنحمل خطاياك)**.. فهو بين الفريقين **حيران** يتردد، أيجد -بعدها- الطريق الرشيد المسدد المؤيد؟

تصيح به أصوات الخطايا ممتلئة بالمكر والإجرام قائلة:

قالت أيسمو الشعر في دنياك عن أوصافنا؟
ويعز يا من تنسجُ الأشواق عن أشواقنا؟
يا شاعر الآهات لم نسمع حديث غرامِنا؟!
تشدو به فيذيب بالألحان مُرّ جراحنا
أنسيت أيام الرضى؟ ونسيت عذب كلامنا؟
أنسيت ترنيم القصائد في ربوع صفائنا؟

لربما ساعده على الفوز في معركة الحياة أن تلوح له قصة يوسف في مقاومته للإغواء والإغراء.. أليست كلماتها تنير له الطريق؟ ألا ترى في حسن حديثها **ما ينفض عن الصدر غبار المضيق، وينير الروح والفكر ببوارق التوفيق؟**.. يرى فيها اعتصام يوسف بربه، ويملأ نفسه بأنوار دربه.. لينضم إلى ناديه، ويستجيب لمناديه، ويكون من أوليائه وحزبه، **فيدخل في حصن الفائزين:** ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ (يوسف).

عند ذلك يجيب داعية الفتنة بصدق الحديث وعزم القلب المملوء بصفاء اليقين:

فأجبتها – متلطفا – حقاً ذكرتِ ولا عليكِ
فلكم ركضت وراء أحلامي لألمح مقلتيكِ
والقلب – يا من تعتبين عليّ – كم يرنو إليك
ويغار – لا تستنكري ما قلت – حتى من يديك
لما تلامس يا فتاة الحسن وردة وجنتيك

لكنني بشريعتي أحيا على درب اليقين
أناعاشق للقمة الشماء للحبل المتين
لكتابي السامي ويكفيني به شرفا ودين

وسترى في هذه السطور أقوالَ المفسرين تترى تُحلل المعاني الرائعة التي تضمنها هذا الكلام المعجز، كما ستجد التفكيك لجوامع الكلم التي وصفت حياة يوسف الكريم ابن الكرام عليهم الصلاة والسلام.. وستشاهد من خلال الآيات العظيمات حركةَ المجتمع وقد مُلِيء بالآثام، في الوقت ذاته الذي ملأ هذا الشابُّ الفتيُّ حياتَه بالأعمال التي تعصمه من السقوط في وحل مستنقعات الإجرام.. ليكافئه الله بأن يعمر قلبه بالطمأنينة والسكينة والسلام، ولذا فإن النقول التي ستقرؤها تجدها مع تصرفٍ فيها يقل ويكثر.. نلتمس مواضع الجواهر منها، ونلتقط اللؤلؤ والدُّر..

فتعال -أعزك الله- نبحث عن العز في كنف الآيات، ونتلمس في تلك الكلمات الاطمئنان مع كثرة الفتن والغواشي المظلمات.. وحينها يجد الحائرون ما يثبتهم؛ إذ غيرهم من الفساق في غيهم يعمهون: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (الأنعام).

إنها قصة البرهان الذي يملأ الشابَّ الحيرانَ، ليكسوَ حياته بالصدق والصفاء.. إنه صفاءٌ يذكر بألَق السماء في يومٍ ازدان بالصفحات الصافية بعد انهمار الغيث في الأنحاء.

سبب إنشاء هذه البصائر

كان سبب كتابة هذه الأسطر عجيبًا؛ إذ لم تنتج هذه الأسطر إلا عن انفعالٍ محضٍ مقابل تدبرٍ ضلَّ سبيله، وعدِم دليلَه لقول يوسف عليه الصلاة والسلام﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ (يوسف: 33) زعم صاحبه فيه أن يوسف لم يطلب المعافاة بل طلب السجن، ولذا نال ما طلب، ولو طلب العافية لوجدها!!.. انظر لسفه هذا التدبر الذي تداولته وسائل التواصل.. لعل أصحابه أرادوا لاستنباطهم أن يرقق القلوب، ويصحح المسير

إلى علوم الغيوب.. لكنهم حادوا عن الجادة، وتاهوا في البحث عن سواء السبيل.. فأوجب ذلك مني الكتابة في معنى هذا البيان المعجز الذي ألهمه يوسف.. دعك من أوهام الواهمين -نوَّر الله بصائرهم وبصائرنا- وعد إلى هذا النور الذي خرج من الفم الشريف.. وبهداه اقتده.. ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠﴾ (الأنعام)، ولما كان كشف الضياء المنبعث من هذا الكلام الحكيم مقتضيًا النظر في السياق القرآني؛ استدعى ذلك أن نبين سبب إصدار يوسف لهذا التحدي الرائع الذي صاغه في صورة الابتهال والدعاء، ولذا بدأ الكلام من الحلقة الثانية من المراحل الحياتية التي عاشها يوسف عليه السلام وهي مرحلة الشباب التي قضاها في بيت امرأة العزيز..

وشكر الله الفضلاء الأجلاء الذين أسهموا في مراجعة هذه البصائر، وتنقيحها إضافة وحذفاً وتعديلاً وتحسيناً، أتم الله عليهم نوره، مثل فضيلة الشيخ الدكتور/ إمام العدس، وفضيلة الشيخ المخبت المنيب/ حسين محمد حسين، وفضيلة الأستاذ المربي الشاعر/ أبي تميم محمد خير طالب، وفضيلة الشيخ الدكتور المحقق/عبد الإله آل هازع، وفضيلة الشيخ المربي الشاعر/ وضاح الجبزي، وفضيلة الشيخ الشاب الطُلَعة المدقق ذي المجد الأثيل/ نبيل قنوي وغيرهم جزاهم الله خيراً ورفعهم مكانا علياً، ولعلكَ -أيدك الله- علمت الآن لماذا بدأت الكتاب من هذا الموضع من سورة يوسف عليه السلام، وليس من بدايتها.. فعسى الله أن يمن فتكتمل هذه البصائر، فتتزين بها القلوب المخبتة والوجوه النواضر، اللهم تقبل هذه الكلمات، واترك عليها في الآخرين سلاما، واجعل لي بها لسان صدق عليًا عندك يا أرحم الراحمين.

عبد السلام مقبل المجيدي
20ربيع ثاني1438هـ

تمهيد
من خصائص القصة القرآنية

والقصة توضح بصورةٍ لا لبس فيها أن القرآن هو المرجع الأعلى في سعادة العالم البشري في كل شيء، حتى في كيفية صياغة الأدب الحقيقي والقصص الواقعي، دون هتك للحياء، أو إثارة لغرائز الأبرياء والسفهاء..

إنه القرآن.. البشرية من دونه يتحكم بحياتها المجانين، لكنهم يتقمصون صورة العقلاء والنبلاء الرفعاء، بينما أفعالهم تورث العالم الشقاء..

إنه القرآن الذي يفصل سبيل السعداء، كما يبين طرق المجرمين، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝٣﴾ (يوسف).

ومن أهم خصائص قصة يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام وهي خصائص القصص القرآني كله:

الخاصية الأولى: تكوين المرجعية الحقيقية في القصص التاريخية:

فإن الكتب الإلهية السابقة اعتراها التحريف والتغيير، والكتب التاريخية غزاها غزاة التاريخ الذين أرادوا تبديل الأحداث لتعبر عن أهوائهم ورغباتهم، وبقي كتاب الله محفوظًا يروي لنا القصص الحق، ومعه السنة المقبولة، ويحدثنا الله عن ذلك فيقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ (آل عمران: 62)، ويقول﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ (النساء: 164)، ويقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ (يوسف: 111)، ولذا يترتب على القصص الحق التصديق الفوري والمواساة من الآخرين، كما قال تعالى عن موسى عليه السلام وقد قدم على شيخٍ كبيرٍ ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٢٥﴾ (القصص)،

خذ أنموذجًا لذلك مما رواه أَبو هُرَيْرَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –وَهُوَ يَقُصُّ فِي قَصَصِهِ– وَهُوَ يَذْكُرُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم: إِنَّ أَخًا لَكُمْ لاَ يَقُولُ الرَّفَثَ يَعْنِي بِذَلِكَ عَبْدَ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ.

وَفِينَا رَسُولُ اللهِ يَتْلُو كِتَابَهُ ... إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الْفَجْرِ سَاطِعُ
أَرَانَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقُلُوبُنَا ... بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعُ
يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ ... إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ[1]

الخاصية الثانية: القصص القرآني يتميز بأهدافه السامية، وغاياته التي تبني الحياة، وتنمي الفكر:

إذ يبين الله الغاية الفكرية والهدف الأسمى من القصص في القرآن فيقول:﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ (الأعراف) إن القصص ليس للإمتاع المحض، ولا للتسلية المجردة، ولا للإثارة المُطربة بل للتفكر وبناء الحياة، والخروج من الغفلة التي يحاول الشيطان تأصيلها في النفس الإنسانية، ولذا قال الله تعالى:﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾(يوسف)،﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾ (يوسف)، ولذلك كان القُصَّاص في العهود الراشدة لا يقصون إلا القصص الحق، والقص الحق مهمة الأنبياء.. كذلك كان يفهم من يخاطبهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولو كانوا راغمين.. واسمع لذلك فيما رواه أُسَامَةَ بْن زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم رَكِبَ عَلَى حِمَارٍ عَلَى قَطِيفَةٍ فَدَكِيَّةٍ وَأَرْدَفَ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَرَاءَهُ يَعُودُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ فِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ قَالَ : حَتَّى مَرَّ بِمَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ فَإِذَا فِي الْمَجْلِسِ أَخْلاَطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ وَالْيَهُودِ وَالْمُسْلِمِينَ وَفِي الْمَجْلِسِ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَلَمَّا غَشِيَتِ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ خَمَّرَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ ثُمَّ قَالَ: لاَ تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا. فَسَلَّمَ رَسُولُ اللهِ صلى

1- صحيح البخاري. حسب ترقيم فتح الباري – (2 / 68).

الله عليه وسلم عَلَيْهِمْ ثُمَّ وَقَفَ فَنَزَلَ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيّ ابْنُ سَلُولَ أَيُّهَا الْمَرْءُ إِنَّهُ لاَ أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ إِنْ كَانَ حقًّا فَلاَ تُؤْذِنَا بِهِ فِي مَجْلِسِنَا، ارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْصُصْ عَلَيْهِ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ فَاغْشَنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ فَاسْتَبَّ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ حَتَّى كَادُوا يَتَثَاوَرُونَ فَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَنُوا[1].

الخاصية الثالثة: جمال التصوير وصفاء التعبير مع الواقعية الحقيقية:

ستجد الواقعية التامة في القصص القرآني.. حيث ترى فيها النبي وهو يُؤذَى، ويردُّ عليه الناس، ويشعر بالحرج البالغ من ضعف قوته أمام خصومه ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ (هود).. وفي قصة يوسف عليه السلام تجد صفاء التعبير وجمال التصوير في القصص القرآني.. ترى دونه صفاء القمر المنير، فترى في هذه القصة الرائعة صدق التصوير كما ترى رُقِيَّ التعبير.. مع أن الكلام إنما هو عن نموذجٍ بشريٍّ هو هذا الشابُّ الخاص إلا أنه تم التعبير عن حياته بكل واقعية، وصُوِّرت اللحظات الخاصة التي مر بها كأنما تحدث لشباب كل زمان ولكن وفق بيئتهم الخاصة.

ولذا ينبغي أن يكون الأداء القرآني النموذج الأعلى للأداء الفني الإسلامي، وسورة يوسف عليه السلام أنموذج متميز لعظمة القرآن الكريم، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في قول الله عز وجل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ قال: نزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فتلا عليهم زمانا فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا، فأنزل الله عز وجل: ﴿الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾﴾ تلا إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ فتلا عليهم زمانا، فقالوا : يا رسول الله لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ كل ذلك يؤمر بالقرآن[2].

1- صحيح البخاري. حسب ترقيم فتح الباري - (6 / 49).
2- المستدرك على الصحيحين للحاكم (2 / 376)، وصححه ووافقه الذهبي، وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول للوادعي ص 136.

وخذ أنموذجًا للتعبير القرآني في هذه السورة: ألا ترى أن الأسلوب القرآني لم يتخل عن طابعه النظيف البتة؟ حتى وهو يصور لحظة التعري النفسي والجسدي الكامل بكل اندفاعها وحيوانيتها عند امرأةٍ قاد الشيطان زمامها، وأنساها عقاب الله أمامها، وعلى الرغم من كشف إجرامها إلا أنك تلمح مع وضوح التصوير عظمة التعبير، ونظافة الفكر المستنير، على نقيض المستنقع الكريه الذي يتمرغ في وحله كُتَّاب «القصة الواقعية» الذين نُزِعَ عنهم الأدبُ في «قصتهم الطبيعية» في أيامٍ صار المعروف فيها منكرًا والمنكر معروفًا، وهم يتحججون بحجة الكمال الفني في الأداء!، فيأتون بكل رعناء من القول وفحشاء[1].

الخاصية الرابعة: الصراحة العالية في معالجة الشهوات الإنسانية دون الخروج عن غلاف الطهارة الذاتية:

فالتصوير القصصي القرآني للشهوات الإنسانية جمع بين الذكر لها، والمعالجة لثورانها، وتغليفها بغلاف بأحسن الألفاظ المطلية بالسندس والاستبرق، فلا ترى فيها فحشًا، ولا فجورًا، ولا تدنسها نجاسات الأقوال، أو رجس الألفاظ.. فمثلًا ترى في هذا الجزء العجيب من القصة إبراز الهيجان الجنسي..

وهي قضية أراد بعض منحرفي المثقفين، وشذاذ المفكرين كـ(فرويد) أن يجعل الكون الإنساني يدور حولها، ثم أقيمت لها المؤسسات التي تزكم الأنوف بالرجس المنبعث في الكلام عنها، فقلِّب الطرف في معالجة القرآن الكريم لتجدها معالجة واقعية أخَّاذة تعطيها قدرها، ولكنها لا تتجاوز في تصويرها حدودها الحياتية، فليست حياة الإنسان فقط (جنسًا، وللجنس) كما تحاول المنظمات الدولية المشبوهة ممن ورث (فرويد) أن تسوق، وفي الوقت ذاته تبث مرتزقتها في الأقطار ليوهموا العالم الحائر أنهم يبحثون عن المصالح الإنسانية التي تسعد الإنسان، بينما

1- في ظلال القرآن (4/ 1954) .

هم يبثون الشقاء، ويمسخون البشر ليتحولوا إلى مخلوقات بهيمية تتنزه عنها بهائم الأنعام ذاتها باسم الصدق الفني، كما قال سيد قطب: "وهي تقف أمام لحظة الجنس كما لو كانت هي كل وجهة الحياة البشرية بجملتها فتنشئ منها مستنقعًا واسعًا عميقًا، مزينا في الوقت ذاته بالأزهار الشيطانية! وهي لا تفعل هذا لأن هذا هو الواقع، ولا لأنها هي مخلصة في تصوير هذا الواقع! إنما تفعله لأن «بروتوكولات صهيون» تريد هذا! تريد تجريد «الإنسان» إلا من حيوانيته، حتى لا يوصم اليهود وحدهم بأنهم هم الذين يتجردون من كل القيم غير المادية! وتريد أن تغرق البشرية كلها في وحل المستنقع كي تنحصر فيه كل اهتماماتها، وتستغرق فيه كل طاقاتها، فهذه هي أضمن سبيل لتدمير البشرية حتى تجثو على ركبتيها خاضعة لملك صهيون المرتقب الملعون! ثم تتخذ من الفن وسيلة إلى هذا الشر كله، إلى جانب ما تتخذه من نشر المذاهب «العلمية!» المؤدية إلى ذات الهدف. تارة باسم «الداروينية» وتارة باسم «الفرويدية» وتارة باسم «الماركسية» أو «الاشتراكية العلمية»"[1].

الخاصية الخامسة: التشويق في القصة القرآنية وفق أسلوبٍ مبتكرٍ لبناء النفس الإنسانية:

في هذه القصة القرآنية نجد الحق في الإخبار والأخبار، كما نجد التشويق في السرد مع ذكر ما يؤدي إلى التذكر والاعتبار على هيئةٍ فريدة لا يجدها المرء إلا في القرآن الكريم، فترى القارئ منجذبًا بالتشويق المكتنز في كل كلمةٍ من القصة، ومع التدبر ونشوء الأفكار وتوالدها بالنظر إلى ما يحويه التعبير القرآني من كنوزٍ مخبأة يظل الفكر يزدان بما يجد من خاطف الأنوار، والحواس تبقى مشدودةً تبحث عن المعاني الظاهرة والمخبوءة في بقية الأحداث التفصيلية والكلية التي حدثت لهذا الشابِّ الكريم ابن الكرام عليهم الصلاة والسلام.

1- في ظلال القرآن (4/ 1960) .

"وما يسمى بالعقدة الفنية في القصة واضح في قصة يوسف. فهي تبدأ بالرؤيا كما سبق، ويظل تأويلها مجهولا، يتكشف قليلا قليلا، حتى تجيء الخاتمة فتحل العقدة حلا طبيعيا لا تعمّل فيه ولا اصطناع! والقصة مقسمة إلى حلقات. كل حلقة تحتوي جملة مشاهد. والسياق يترك فجوات بين المشهد والمشهد يملؤها تخيل القارئ وتصوره، ويكمل ما حذف من حركات وأقوال، مع ما في هذا من تشويق ومتاع"[1].

الخاصية السادسة: الحركية الجاذبة في الصور القرآنية المتدفقة:

فلكأنك تعيش في عالم آخر بمجرد أن تسمع قول الله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِۖ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ (الأعراف).

بل إنك عندما تسمع الآيات التي تتحدث عن أمورٍ تتعلق بالجدل مع المعاندين حول الحقيقة النبوية ترى آفاقًا متعددة تتحرك أمامك.. فاشعر بهذا التدفق في قوله تعالى ذكره: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢﴾ (يونس)، ولذا جذب علية العالم وصناديدهم، وأنزلهم من عروش عنادهم بجاذبية لا يملكون ردها إلا أن يخسف بهم العناد، أو يتملك قلوبهم الفساد.. لقد أدهش من صناديد العالم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأسلم، والوليد بن المغيرة فصد وأعرض بعد أن اعترف وأقر، وعندها لم تملك أجهزة العناد والتكفير العالمي إلا أن تحول بين الناس وبين سماع القرآن؛ فوضعوا خططهم المتكررة في جوهرها في كل زمان ومكان، وخاطبوا العالم عبر أجهزتهم الإعلامية المؤثرة فقالوا: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ (فصلت)..

1- في ظلال القرآن (4/ 1962) .

فَقَائلٌ يقولُ: هذا سِحرُ وقائلٌ: في أذُنيَّ وَقْرُ
وقائلٌ يقولُ ممّنْ قَد طَغُوا لا تسمعُوا لهُ، وفيه فالْغوا
وهُمْ إذا بعضٌ ببعضٍ قدْ خَلا اعتَرَفوا بأنَّ حقًّا ما تلا
وأنهُ ليس كلامَ البَشَر وأنّه ليسَ لهُ بمُفتَرِي
اعترَف الوليدُ، ثمّ النَّضرُ وعتبةٌ بذاكَ، واستقَرّوا
وكيفَ لا وهْوَ كلامُ اللهِ مُنزهٌ عنْ نِحْلةِ اشتبَاهِ
يَهدي إلى التي هُدَاها أَقْوَمُ بهِ يُطَاعُ وبهِ يُعتَصَمُ
وهْوَ لَدَيْنا حَبْلُهُ المَتينُ نعبُدُهُ بهِ، ونستعينُ
وهْوَ الذي لا تَنقَضي عَجَائبُهْ ولا يَضلُّ أبدًا مُصاحِبُهْ؟![1]

وما لهم ألا يقولوا ذلك وهم يرون الجاذبية الهائلة لهذا الكتاب عندما تسمعه العقول، فتخضر القلوب المجدبة عند سماعه وتتفتح تفتح الزهر في الرياض الغَدِقة.

الخاصية السابعة: البناء التربوي الذي يتم من خلال أحداث القصة ليحقق الإشباع القلبي والعقلي:

فالأحداث تسير متسلسلة بانسياب رائع يزينه التعقيبات على الأحداث المتتالية بأسلوبٍ لا يقطع تسلسلها، بل يزيدها وضوحًا وبيانًا، ويجعل السرد فيها كأنه مشاهَدٌ عيانا، ولا يجعل السرد لمجرد الترفيه والاستمتاع، بل للبناء الإيجابي والتزكية والفائدة والانتفاع، ولذا نجد مثلًا أن الله تعالى يعقب على قصة إجرام الذين اتخذوا يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام رقيقًا فيقول سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩﴾ (يوسف)، فإذا هذه الجملة المباركة تبين لك سرًا من أسرار الحركة الكونية، أو يأتي التعقيب ليبني القلوب والعقول ويفتحها على سرِّ الأحداث كقوله تعالى عقب بيع يوسف لرئيس وزراء مصر: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ (يوسف: 21).

1- ألفية العراقي في السيرة ص7.

ومع أعلى درجات الإثارة في السرد القصصي نجد التعليق النوراني الذي يكشف بعض أسرار الأحداث غير المتوقعة من الناحية البشرية، فيقول الله تعالى مبينًا سرَّ قوة الثبات العظيمة لهذا الشابّ الرائع في مواجهة الإغواء والإغراء: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾ (يوسف: 24).

ويمكن أن يجزم الناظر أن العِبَر التي تكتنز الجواهر والدرر من حلل التزكية، ومواقف التربية المأخوذة من هذه الآية أكثر من ذلك بكثير على حد قول ابن القيم عن قصة يوسف عليه الصلاة والسلام: " وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنَ الْعِبَرِ وَالْفَوَائِدِ وَالْحِكَمِ مَا يَزِيدُ عَلَى الْأَلْفِ فَائِدَةٍ، لَعَلَّنَا إِنْ وَفَّقَ اللَّهُ أَنْ نُفْرِدَهَا فِي مُصَنَّفٍ مُسْتَقِلٍّ"[1].

الخاصية الثامنة: إظهار المفاجآت المباغتة في مكانها المناسب من القصة القرآنية:

ليزيد التشويق، ولتكون متابعة القراءة ألذ من طعم الرحيق، وذلك كظهور القافلة من بعيد ..لإنقاذ ذلك الفتى الكريم الوحيد، أو ظهور زوج امرأة العزيز.. فجأةً مع احتدام معاركة يوسف عليه السلام مع حبائل الشيطان، ويأتي معه الشاهد غير المتوقع مقدمه أيضًا ليظهر يوسف أنقى من الذهب الإبريز.. وبذا يبقى المستمع والمستمتع بقراءة الكتاب في غاية الإثارة والاهتمام للإكمال والتفكر في الدروس تجذبه أحداث القصة.. ويعيش التفاعل مع أياديها التي تنمي قلبه وعقله وحياته.

1- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء (ص: 210) .

الخاصية التاسعة: قوة الاختيار للكلمات التي تحمل دلالاتٍ عميقة:

حيث تجتمع الصور المتعددة في الكلمة الواحدة كما سنرى في مثل كلمة (بشرى) وكلمة (أشده) وغيرهما، ويظهر من خلال هذا التوفير للمعاني كوثرٌ عظيم من جمال المباني، ونهرٌ غزير تتدفق فيه الصور من ربوع تلك المغاني..

وسترى أسلوبًا مدهشًا يسير عليه البيان القرآني: إن أسلوب الحذف، وهو سبيلٌ في البيان يطرب له الظمآن، ويثير جماله الهيجان، فهو كما قال الجرجاني: "بابٌ دقيقُ المِسْلك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأَمر، شبيهٌ بالسِّحْر، فإنكَ ترى به ترْكَ الذِكْر، أَفْصَحَ من الذكْرِ، والصمتَ عن الإفادةِ، أَزْيَدَ للإفادة، وتَجدُكَ أَنْطَقَ ما تكونُ إذا لم تَنْطِقْ، وأَتمَّ ما تكونُ بيانًا إذا لم تبن"[1]

وادعاء الحذف في الكلام المتدفق ليس عبثًا، ولا لهوًا ولعبًا، بل هو قائمٌ على أسسٍ راسخةٍ من معاني العربية يدل فيها المذكور على المحذوف، والموجود على المعدوم.. سترى ذلك في هذه القصة التي تأخذ الأنفاس، وتبني الهدى بين الناس..﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ ﴿٨٨﴾﴾ (ص).

إنها أحسن القصص..إنه أحسن الحديث، ومن خلال ذلك تنعكس صورةٌ إعجازيةٌ فريدةٌ في القرآن الكريم تبنى نفسيات شباب المسلمين الذين يمثلون الأمل المشرق القادم، عندما تكون أنوار القرآن **هي التي تقود تفكيرهم، وتشفي حيرتهم، وتزيل أسقامهم، وتذهب أوهامهم** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ (يونس)، ولكل واحدٍ منهم ننادي:

1- دلائل الإعجاز ت شاكر (1/ 146).

أيها الطود الـذي قـد كـان بالأمـس قويـا
يزحم الشمـس ويستعصي على الغزو فتيـا
رافلًا فـي العـزة القسعـاء وضَّـاء المُحَيَّـا
يغمـر الآفـاق بالنـور فـلا يـترك غيا
ويبـث العـدل في الأرض فـلا يبقـي شقيـا
عـد إلى مـاضيـك وانهـض في شموخٍ للثريـا

مشاهد القصة

المشهد الأول

مع الفتى في طفولته وقصته

لقد عاش هذا الفتى طفولته بين حنان الأبوة ونعيمها، ودفئها من جهة، وبين نيران الحسد من أقرب الناس إليه من جهةٍ أخرى.. نعم.. إنه الحسد! ولكنه ليس حسدًا من البُعداء البُغضاء، بل من الإخوة الأقرباء.. ممن يظهرون أنهم الصادقون الأتقياء أو الناصحون الرحماء..

إنه الحسد! خُلُقٌ يجعل القلوب كالأرض اليباس، ويحول أصحابَه إلى طباع الوحوش، فيخرجون عن طبيعة الناس، فهم يَتَّبِعون أهواءهم، ويتابعون أشرارهم وبغضاءهم راغبين في تدمير العالم وإفساده ﴿بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ (البقرة: 90).

عاش يوسف عليه السلام طفولته في محنٍ وإحنٍ مع أنه سليل الأنبياء الكرام.. عاش الآلام التي يجدها من الحُسَّاد وهو الطفل الذي أوتي أجمل أخلاقٍ وألطف ما ينجذب إليه الأنام، كيف لا وهو الكريم ابن الكرام يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وكانت محنته مع إخوته في بيتٍ واحدٍ حَلْقةً عمرية تتخذ صورًا مختلفةً عند كثيرٍ من أبناء الدنيا، لكنها لا تخرج عن حيز الاختبار ليظهر للعالم من هم الأبرار، ويستبين سبيل المجرمين الفجار، ويبرز فيها من لم يتبع هواه، وصد عن سبيل الشيطان وعماه، فسلك سبيل الصادقين، قانتًا لله حنيفًا ولم يك من المنحرفين.

والآن.. ها هو الفتى يوسف على مشارف محنةٍ يتعرض لمثلها معظم شباب الدنيا، وهي محنةٌ جارفةٌ لا عاصم فيها من أمر الله إلا من رحم، تذبل في حمأتها الأوراق المخضرة، وتَسْوَدُّ فيها الوجوه البيضاء الناعمة النضرة، فكأنها -إن وقعت في السوء- موحِشةٌ مغبرة..

إنها محنة التعرض للغواية في جو القصور، والفتنة في ظل «الطبقة الراقية» وما يغشاها من تهتكٍ وفجور..

وتصور هذه القصة جزءًا من عظمة الكريم ابن الأكارم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.. تصوره وهو يتعرض لمحنةٍ مزلزلةٍ عظيمةٍ هي أشد حالًا من محنة تآمر إخوته، وابتعاده عن أبيه، وآلامه في فقد عاطفة أُبُوته.. ولكنه سيترقى إن نجح في اجتياز هذه المحنة ليكون من أهل الله وصفوته.

إن فتنة القصور تدعوه إليها ليترك الصدق والصفاء والإخلاص وزكاة الأنفاس، وفتنة الجب وظلم إخوته المحكي عبر الدهور تبعده لئلا يكون له اختيارٌ للنجاة إلا الصبر والصدق والإخلاص.

فصبره في فتنة القصور أعظم أجرًا؛ لأنه صبر اختيارٍ مع وجود الدواعي الكثيرة للوصول إلى النجومية المدعاة في محاكاة حياة الفجار، واتباع نزوات الشباب الأغرار، فإذا هذا الشابُّ يرسم حديقة غناء مخضرة الأوراق، وارفة الظلال، مضيئة الأزهار، ريانة الأغصان.. تزينها براءة الطبيعة وقوتها أمام إغراءات الشيطان وملذات العصيان.. تراه يسارع لِيُقَدِّم صورة الشابّ القادر على كبح جماح شهواته..يؤثر محبة الله على رغباته ونزواته.. فكيف ستراه بعد؟

ستراه وهو يزداد جمالًا، ويرتفع أحوالًا؛ لأنه آثر أن يتحكم بنفسه، ويؤثر رضى الله على ما عداه، فإذا رأيته رأيتَ معاني الصدق والإيمان وهي ترفل في ثيابه وحلله، وبه تستنير وتزدان مع أنه يعيش في دهاليز مجتمعٍ طالما شَوَّه النفاقُ فيه الوجوه، ونكس الجِباه، وأكل الصدق من الشفاه، إلا أن الله بنعمته اصطفاه فعاش لربه ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ﴾ (النحل: 121).

وأما محنته بإخوته فصبره فيها صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختيار، وليس له ملجأ إلا الصبر عليها، طائعًا فعل ذلك أم كارهًا.

وملخص القصة أن يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام بقي مُكَرَّما في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما جعل الذين يتبعون الشهوات يريدون إغراقه في وحل الأشقياء، فصرف الله عنه برحمته وفضله السوء والفحشاء.. كذلك يجزي الله المتقين ويصنع مع العارفين العاملين، فقد قرر لنا قانون ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾ (يوسف).

المشهد الثاني

يوسف بين تجار البشر وحفظ المليك المقتدر

لم يتصور يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام وهو الطفل البريء أن يصل حسد إخوته هذا الحد من الظلم، فقد ألقوه وحيدًا في بئرٍ عميق مهجور ينتظر الموت فيه بطرقٍ مختلفة، ولما انقطعت عنه أسباب البشر جاءه عون صاحب القوى والقُدَر، فأغاثه الله تعالى من حيث لا يحتسب، ومدَّ له حبال النجاة في تلك الكُرَب، فقال مسبلًا على محنته الطمأنينة والسلام: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾(يوسف: 19) ، فانظر إلى هذا الكم الهائل من التفاصيل في كلام الملك الحكيم الجليل:

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ والسيارة هنا صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ مِنَ السَّيْرِ كَجَوَّالَةٍ، وَكَشَّافَةٍ، وقناصة، أَيْ: جاءت جَمَاعَةٌ أَوْ قَافِلَةٌ مسافرةٍ تسير في تلك الطريق، وَفِي سِفْرِ التَّكْوِينِ: أَنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْإِسْمَاعِيلِيِّينَ، أَيْ: مِنَ الْعَرَبِ.

فانظر إليهم: هاهم يتقدمون مارين بطريق ذلك البئر، فأحوجهم الله تعالى إلى الماء، فاختاروا منهم واحدًا أو أكثر للبحث عن بئرٍ قريب، أو ماءٍ صبيب، ﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾ وهو الرجل الذي يرد المنهل والمنزل، والمُتوقَع أن يكون هذا الرسول أكثر من واحدٍ ليتمكنوا من حمل أكبر كميةٍ من الماء يمكن حملها في هذه القافلة السيارة، وإنما عبر بالواحد لاتحاد المهمة، وجريان مثل ذلك في العربية العامة، وعادة الواردين أن يمدوا خطاهم، ويسرعوا سيرهم في الطريق إلى الماء لأنه ضرورة مبتغاهم، ولذا يوصف الواحد منهم بأنه (جَرِيٌّ) لأنه يجري في الحوائج الضرورية في قوافل ذلك الزمان، فلاحظ الواردون البئر المُتنَحِي جانبًا على بعدٍ منهم، فوصل السابق منهم إلى البئر، ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أي: أرسل دلوه في البئر، وأنزله، وكثيرًا ما يكون في الكلام محذوفٌ يستغنى بدلالة الموجود على المفقود، أي ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ فلاحظ

يوسف الحبل، وبالذكاء الفطري الذي وهبه الله إياه رأى أن في ذلك نجاته فتعلق بالحبل، فلما شعر وارد الماء بثقل الدلو ظنه امتلأ ماءً، فسحبه، فارتفع بذلك الطفل البريء، فلما رآه وارد الماء في الدلو اندهش للوهلة الأولى وتحير، لكنه سرعان ما انتبه وفكر وقدر، وسُرَّ بما رأى واستبشر، فقال قولين عجيبين تبينهما كلا القراءتين في هذه الآية ليصبحا مشهدين متتابعين:

فأما المشهد الأول فقال: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ﴾ ﴿هَٰذَا غُلَٰمٞ﴾ (يوسف:19) [1] على إضافة البشرى لنفسه، وعلى النداء لها، كأنه يقول: أيتها البشرى احضري احضري، فهذا وقتكِ[2]، وهو بهذه العبارة يبشر نفسه، فتأمل مشهده تصوره قراءة الجمهور.

ثم يأتي مشهدٌ ثانٍ تالٍ لهذا المشهد ترسمه قراءة الكوفيين: إذ شعر بخطأ تبشير نفسه مع وجود واردٍ آخر، أو واردين آخرين معه، وهم يسمعون كلامه المفاجئ فقال: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞ﴾ (يوسف: 19) فجعل البشرى هنا عامة له ولمن معه من الواردين للماء، فصورت القراءتان بصورةٍ عجيبة رائعةٍ، وإعجازٍ بيانيٍ مذهل حالة هذا الذي استخرج الماء من البئر، فهو مع صحبه إنما جاءوا للماء فخرج لهم أمرٌ أعظم فرحوا به، فشعروا هم بالاستفادة، كما شعر يوسف بأنه قد نجا بهذه الوفادة، وهنا ينطق الحكماء الذين يأخذون من القرآن النور والضياء.. فيقولون:

ليس كلّ من طلب شيئًا يُعطى مراده فقط، بل ربما يعطى فوق مأموله، كالسيارة كانوا يقنعون بوجود الماء الذي يروي العطش والأُوام (الظمأ)، فوجدوا يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

ويقولون: ليس كل من وجد شيئًا كان كما وجده، فالسيارة توهموا أنهم وجدوا عبدًا مملوكًا، وكان يوسف– في الحقيقة– حرًّا[3].

1- تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (15/ 1) .
2- تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (3/ 228) .
3- لطائف الإشارات = تفسير القشيري (2/ 174) .

يا للعجب والفرحة والقصة الرائعة: لقد خرج الفتى يوسف من ذلك الجب الموحش.. فيا ترى كيف كان ابتهاج يوسف -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- عندما شعر بالنجاة بعد أن أخرجه الوارد؟ كيف كان فرحه بعد أن اكتوى بنارين: فقد فقد حنان العائلة وغاب عنه رفق الوالد؟ كيف كان شعوره بلطف الله به، وهو اللطيف الخبير الماجد يغيث من تمسك بحباله، وينقذ من هو له قاصد؟ ثم كيف كان سروره أيضًا وهو يسمع كلماتٍ فرحةٍ مستبشرة مثل: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞ﴾ (يوسف: 19)؟

ولكن هذه الفرحة لم تدم كثيرًا بالمستوى ذاته، فماذا حدث بعد؟

مؤامرات الطمع التجارية تعكس الجانب المظلم للبشرية

لقد استبشر بيوسف الطفل البريء تجارُ البشر لا لأنهم أنقذوا حياةً مُكَرَّمةً طاهرةً بَرِيئة، كما يظهر من عبارات البشرى المغرية، بل لأنهم فكروا في بيعه كدأبهم في التلاعب بالعواطف البشرية، والتجارة بالبشر تجارةٌ ظالمةٌ لكنها رائجةٌ على مر العصور، وفي العصور الحديثة اتخذت من المؤسسات الدولية منابر لها، وتشيد بأرباحها المباني والقصور، وهي تتخذ أشكالًا متعددة، وتحظى بالقوانين الدولية اللازمة، إلا أن أصحابها في عصرنا المتأخر يسمونها بغير اسمها، فهذا الطفل الصغير البريء لما أخرجوه من الماء ابتسموا له، ولكنهم عزموا في أنفسهم على جعله بضاعة مع نِفاقهم معه حينما رأوه، فلاطفوه بالكلام، وأسرُّوا في أنفسهم بيعه على ما هو المعتاد من طباع اللئام، وذهبت تلك الابتسامات في دهاليز نِفاق الأنفس المظلمات، فحملوه معهم ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗ﴾ (يوسف: 19)، والْبِضَاعَةُ الْقِطْعَةُ مِنَ الْمَالِ تُجْعَلُ لِلتِّجَارَةِ، مِنْ بَضَعْتُ اللَّحْمَ إِذَا قَطَعْتُهُ، فاتفق الوارد مع من جاء معه إلى الماء أن يقولوا:"اشتريناه من أهل الماء، خوفًا من بقية رفقتهم في القافلة لئلا يسألونهم الشركة فيه، فقالوا: إن سألونا ما هذا؟ قلنا: بضاعةٌ استبضَعَناه أهل الماء[1].

ويذكر الإمام الطبري عن مجاهد بن جبر أن إسرار يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة

1- تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (15/ 5) .

والسلام بضاعة من قبل الوارد للماء كان خوفًا من جهتين:

الجهة الأولى: من القافلة لئلا يطالب أهل القافلة وارد الماء ومن معه بالشركة فيه.

والجهة الثانية: من أهل الماء لئلا ينتبه له أهل القرية القريبة من الماء فيطالبونهم به، فإذا رآه أحدٌ من أهل الماء معهم قالوا له: إنما هو بضاعة[1].

هكذا يكون التآمر على بيع البشرية وفق القوانين الشرعية الدولية المرعية: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ (يوسف).

الرقابة الإلهية التي لا تغيب عن الأوضاع البشرية:

هذا الظلم البشري لهذا الفتى البريء كان متعدد الأقطاب، وانبعث من عددٍ من الجهات:

الجهة الأولى: جهة الأقارب: إنهم ذوو قربى يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وليسوا أيًا من قراباته الأبعدين بل هم إخوته.. إنهم من ينتظر منهم هذا الغلام اليافع التأييد والنصر والمشاركة في مواجهات أزمات الحياة، إلا أن الذي حدث هو نقيض ذلك: تخطيطٌ متآمرٌ، وصحب التآمرَ قسوةٌ بالغةٌ في التفكير والتخطيط والتنفيذ كما قال محمد ابن إِسْحَاقَ: فَلَمَّا انْتَهَوْا بِهِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أَرَادُوا بِهِ مَا أَرَادُوا، جَرَّدُوهُ مِنْ قَمِيصِهِ، وَهُوَ يُنَاشِدُهُمُ اللَّهَ وَرَحِمَهُ وَقِلَّةَ ذَنْبِهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، فَلَمْ تَعْطِفْهُمْ عَلَيْهِ عَاطِفَةٌ، وَقَذَفُوهُ فِي الْجُبِّ بِغِلْظَةٍ وَفَظَاظَةٍ، وَقِلَّةِ رَأْفَةٍ[2].

الجهة الثانية: جهة الأباعد: إنهم من بني الإنسان جاءوا عابرين، ورأو طفلًا بريئًا مرميًا عن بقية العالمين، وبدلًا من مساعدته وإكرامه اتخذوه بضاعة على طريقة قساة الظالمين، وأسرَّوا ذلك عن بعضهم على الأسلوب المعتاد لطمع الغادرين، ولعبوا به على

1- تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (15/ 5) .
2- تفسير ابن أبي حاتم - محققا (7/ 2113) .

طريقة المجرمين، وخدعوا العالم من حَولِه بعبارات التودد والتبشير، وهم يحملون قلب الذئب المسعور المغير.. كذلك تمضي طباع تجار البشر في سائر العصور، فهل معنى كل هذا الظلم أن الله غير مطلعٍ على كيد الكائدين، ومكر الماكرين، وإجرام المجرمين.. هنا يأتي الجواب: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩﴾ (يوسف) أي عليمٌ بِمَا يَعْمَلُهُ هَؤُلَاءِ السَّيَّارَةُ الواردون، وعليم بمَا يَعْمَلُهُ إِخْوَةُ يُوسُفَ، فَلِكُلٍّ مِنْهُمْ أهداف في التلاعب بقضية يُوسُفَ عليه السلام:

أما أهل القافلة السَّيَّارَة فيَدَّعُونَ بِالْبَاطِلِ أَنَّهُ عَبْدٌ لَهُمْ فَيَتَّجِرُونَ بِهِ، وربما منوا عليه بإنقاذه من البئر، والله عليم بما يعمله هؤلاء التجار من ظلمٍ وإهانة للإنسانية.

وأما إِخْوَةُ يُوسُفَ فالله عليم بأَمْرِهِمْ مَعَ أَبِيهِمْ فِي إِخْفَائِهِ، وَتَغْرِيبِهِ، وَدَعْوَى أَكْلِ الذِّئْبِ إِيَّاهُ، وَحِكْمَةُ اللهِ تَعَالَى فِيهِ فَوْقَ كُلِّ ذَلِكَ[1]، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولكنه ترك تغيير ذلك ليُمضيَ فيه وفيهم حكمه السابق في علمه، وليُرِيَ إخوة يوسف ويوسف وأباه والعالمين قدرتَه فيه، وإحاطته بالأقوال والأفعال وخطرات القلوب.

فانظر لجمال هذا التعقيب: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩﴾(يوسف) كيف تضمن: الإخبار عن علمه، والبشرى للمظلوم بقرب نصره، والتهديد للظالم بقرب حسابه، والتسلية للمستمع بتشابه أحواله مع أحوال من سبقه، فهو -كما قال الطبري-: "وإن كان خبرًا من الله تعالى ذكره عن يوسف نبيّه صلى الله عليه وسلم، فإنه تذكيرٌ من الله نبيَّه محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم، وتسليةٌ منه له عما كان يلقى من أقربائه وأنسبائه المشركين من الأذى فيه، يقول: فاصبر، يا محمد، على ما نالك في الله، فإنّي قادرٌ على تغيير ما ينالك به هؤلاء المشركون، كما كنت قادرًا على تغيير ما لقي يوسف من إخوته في حال ما كانوا يفعلون به ما فعلوا، ولم يكن تركي ذلك لهوان يوسف عليّ، ولكن لماضي علمي فيه وفي إخوته، فكذلك تركي تغييرَ ما ينالك به هؤلاء المشركون لغير هوان بك عليّ، ولكن لسابق علمي فيك وفيهم، ثم يصير أمرُك وأمرهم إلى عُلوّك عليهم، وإذعانهم لك، كما صار أمر إخوة

1- تفسير المنار (12/ 223) .

يوسف إلى الإذعان ليوسف بالسؤدد عليهم". وهنا نتذكر قول الناصح الزكي النفس وهو يتأمل أقدار الله تعالى التي جعلت الأنبياء المختارين أكثر عظمة، وصقلتهم الأحداث المؤلمة حتى غدوا أعلى مكانة: "ربما أعطاك فمنعك.. وربما منعك فأعطاك". نعم.. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾، وقد قال ابن القيم رحمه الله:

فهو العليم أحاط علمًا بالذي ... في الكون من سر ومن إعلان
وهو العليم بما يوسوس عبده ... في نفسه من غير نطق لسان
بل يستوي في علمه الداني مع الـ ... ـقاصي وذو الإسرار والإعلان
فهو العليم بما يكون غدًا وما ... قد كان والمعلومِ في ذا الآن
وبكل شيءٍ لم يكن لو كان كيـ ... ـف يكون موجودًا لذي الأعيان
ويرى دبيب النمل في غسق الدُّجى ... ويرى كذاك تقلُّب الأجفان
ويرى مجاري القوت في أعضائها ... ويرى نِيَاطَ عروقها بعيان
ويرى خيانات العيون بِلَحْظِها ... إي والذي برأ الورى وبَرَانِي

المشهد الثالث

من ظلمة الجب وضغائن الصدور إلى راحة الجسد وسعة القصور (المأساة الإنسانية أمام جشع بعض أبنائها)

هكذا أخذ وارد الماء مع من جاء معه ذلك الطفلَ البريءَ، وعزموا على بيعه في سوق الرقيق لترى من خلال ذلك معاناة الإنسانية مع من يبيع كرامتها وعزتها وإنسانيتها من باعة البشر وتجار الشعوب.. وهم أنفسهم سرعان ما يتحولون إلى تجار حروب، وتُصَوِّرُ الجملةُ القرآنية هذا الهوان للإنسانية في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ (يوسف)، وانظر عظمة التعبير، وجمال التصوير:

﴿وَشَرَوْهُ﴾ شَرَى الشَّيْءَ يَشْرِيهِ: بَاعَهُ، وَاشْتَرَاهُ ابْتَاعَهُ، والمعنى: باعه من ادعى تملكه من القافلة السيارة بثمن بخس، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ لَفْظُ ﴿وَشَرَوْهُ﴾ قَدِ اسْتُعْمِلَ بِمَعْنَى اشْتَرَوْهُ، وَيَكُونُ الْمُرَادُ أَنَّهُمُ اشْتَرَوْهُ مِنْ إِخْوَتِهِ بِثَمَنٍ بَخْسٍ، حيث ظهر بعض إخوته لما أخرجه الوارد من البئر، وادعوا أنه عبدٌ لهم على قول بعض المفسرين، ثُمَّ بَاعه وارد الماء ومن معه في مِصْرَ بِثَمَنٍ بَخْسٍ أَيْضًا، وَهُوَ إِدْمَاجٌ مِنْ دَقَائِقِ الْإِيجَازِ[1]، ووصف الله تعالى صفقة بيعه بثلاث صفات:

الصفة الأولى: أنه بخس

الصفة الثانية: أنه عبارة عن دراهم معدودة

الصفة الثالثة: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾، أي تعاملوا معه تعاملَهم مع البضائع الملتقطة التي لم يبذلوا جهدًا في تحصيلها فكانوا من الراغبين عنه الذين لا يبالون بأي ثمنٍ باعوه، لذا لم يجدوا غضاضة أن يبيعوه بذلك الثمن البخس، فقد التقطوه، والملتقط للشيء متهاونٌ به[2]، كما يقول عامة الناس: بيعة لص، وصفقة سارق.

1- تفسير المنار (12/ 223) .
2- فتح البيان في مقاصد القرآن (6/ 304) .

وعند هذا الكلام لك أن ترى كيف صورت الآية مقدار هوان الأنام، ووحشية من يتاجر بأبناء الإنسانية من الوحوش اللئام، فإن كلمة (بخس) تعني نقص، أي بثمن منقوص، ومهما كان المبلغ الذي يُدفع مقابل الإنسان فإنه يظل غير مساوٍ لجزءٍ من الكرامة التي فضله بها الرحمن جل في علاه، ولذا فسر الضحاك الثمن البخس بأنه الحرام، وقال: كان بيعه حرامًا، وشراؤه حرامًا. وفسر قتادة البخس بأنه الظلم[1]، وبهذين المعنيين لهذين المفسرين الجليلين يظهر مقدار الإجرام الذي تمارسه المحافل التي تتاجر بكل من ينتمي إلى الإنسانية المكرمة، والشريعة تبين أن كل ثمنٍ صغر أو كبر فهو يعد حرامًا وظلمًا، ومهما كان الثمن الذي دُفِع مقابل يوسف عليه الصلاة والسلام فهو ثمنٌ بخس ناقص؛ لأن الله كرمه وأعلاه، كما أعلى غيره من بني الإنسان، إلا من أوجب على نفسه الذم والهوان، وساوى نفسه بسباع الحيوان.

والدراهم المعدودة التي بيع بها المكرم يوسف قيل كانت أقلّ من الأربعين، لأنهم كانوا في ذلك الزمان لا يزنون ما كان وزنه أقلّ من أربعين درهمًا، فأقل أوزانهم وأصغرها كان الأوقية، وكان وزن الأوقية أربعين درهمًا. ودلَّ على ذلك قوله: ﴿مَعۡدُودَةٍ﴾ على قلة الدراهم التي باعُوه بها[2].

نعم لقد كانت هذه الفئة الظالمة المتحكمة في موازين القوى البشرية من الزاهدين بهذا الغلام الجميل الملامح لأنها لم تسترشد بنور كلام الله المبين، وكانوا يبحثون عن القوة أكثر من غيرها.. ومع هذا الظلم الذي يصيب هذا الفتى هل يتركهم الله يعيثون في الأرض فسادًا، ويحتفلون مع المعتدين؟

كلا، فقد أعد الله رب العالمين لمن عبده حق العبادة مقام الفائزين:

إن كنتُ عندك يا مولاي مطَّرَحاً فعند غيرك محمول على الحدق

1- تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (15/ 12) .
2- تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (15/ 13) .

من وحشة الجب الضيق الصغير إلى التمكين في الأرض ورفاهية القصور

أنقذ الله تعالى يوسف من محنته الرهيبة الأولى حيث أُلْقِيَ فِي الجُبِّ من قبل أقرب الناس إليه مع أنه طفلٌ صغير[1]، ثم قذف الله تعالى في نفس عزيز مصر أن يشتريه، وأَلقى في قلبه محبته كولدٍ مستوهَبٍ لا كعبدٍ مستخدم، فانتقل يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام من جفاء الأخوة، ووحشة الجبِّ الرهيب، وهوان العبودية إلى بهاء القصور، وراحة العيش، ورغد الحياة، وحنان قريب من حنان الأبوة بادئ الأمر.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾(يوسف: 21)، ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ أي: أكرمي موضع مقامه، وذلك حيث يَثوِي ويُقيم، والمثوى: مكان الثويّ والمبيت والإقامة، والمعنى: أكرمي نُزُلَه الذي يثوي فيه بالطعام الطيب، واللباس الحسن، وأحسني تعهده حتى تكون نفسه طيبةً في صحبتنا، وساكنةً في كنفنا، ويقال للرجل: كيف أبو مثواك وأم مثواك؟ لمن ينزل به من رجلٍ أو امرأة، وهو يريد: هل تطيب نفسك بثوائك عنده؟ وهل راعينا حق نزولك؟ والمقصود بإكرام مثواه إكرامه هو، ولكن التعبير أعمق، فلم يقل (أكرميه) بل قال: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ لأنه يجعل الإكرام لا لشخصه فحسب، ولكن لمكان إقامته، وإكرام مثواه كنايةٌ عن إكرامه على أبلغ وجهٍ وأَتَمِّه؛ لأن من أكرم المحل بإحسان الأَسِرَّة واتخاذ الفرش ونحوه فقد أكرم ضيفه بسائر ما يُكْرم به، وقد تكون كلمة (مثوى) مقحمةً والمراد (أكرميه)، ولذا قال الْمُحَقِّقُونَ: أَمَرَ الْعَزِيزُ امْرَأَتَهُ بِإِكْرَامِ مَثْوَاهُ دُونَ إِكْرَامِ نَفْسِهِ مما يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ، وَهُوَ كَمَا يُقَالُ: سَلَامُ اللَّهِ عَلَى الْمَجْلِسِ الْعَالِي، والمقام السامي[2]، ومنه قول بعضهم:

قلبي الذي يهواك طال نواهُ آتٍ إليكِ فأكرمي مثواه[3]

وذلك كله يدل على المبالغة له في الإكرام..

1- تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (15/ 5) .
2- تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (18/ 435) .
3- فتح البيان في مقاصد القرآن (6/ 305) .

قارن هذا واجعله في مقابل مثواه في الجبّ وما حوله من مخاوف وآلام! وانظر لتدبير الملك الجليل العلام، وقل: اللهم إنا نسألك أعظم الفضل والإنعام.

الديك الفصيح لا يزال في البيضة يصيح

ظهر النور والألق والذكاء في ملامح هذا الفتى يوسف، وشعر بذلك الرجل الذي اشتراه من مصر، فكشف الرجل لامرأته عما يتوسمه في الغلام من خيرٍ، وما يتطلع إليه فيه من أملٍ، فقد تفَرَّسَ هَذَا الْوَزِيرُ الْكَبِيرُ فِي يُوسُفَ أَصْدَقَ الْفِرَاسَةِ فقال:

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ بِالْقِيَامِ بِبَعْضِ شُئُونِنَا الْخَاصَّةِ، أَوْ شُئُونِ الدَّوْلَةِ الْعَامَّةِ، لِمَا يَلُوحُ عَلَيْهِ مِنْ مَخَايِلِ الذَّكَاءِ وَالنَّبَاهَةِ، ومن ثم تطلع الرجل أن يتخذاه ولدًا إذا صدقت فراسته، وتحققت آماله في شخصية هذا الغلام وظهرت نجابته، فقال: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ فَيَكُونَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَنَا، وَوَارِثًا لِمَجْدِنَا وَمَالِنَا إِذَا تَمَّ رُشْدَهُ، وَفُهِمَ مِنْ هَذَا الرَّجَاءِ أَنَّ الْعَزِيزَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ، وَمَا كَانَ يَرْجُو أَنْ يَكُونَ لَهُ، وَذُكِرَ أَنَّهُ كَانَ عَقِيمًا، وَكَانَ رَجَاؤُهُ هَذَا كَرَجَاءِ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ فِي مُوسَى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وَكَانَتْ صَالِحَةً مُلْهَمَةً، وَأَمَّا الْعَزِيزُ فَكَانَ ذَكِيًّا صَادِقَ الْفِرَاسَةِ، فَرأى كَمَال خَلْقِ يُوسُفَ وَخُلُقِهِ، وَذَكَاءه وَحُسْن خِلَالِهِ، فوقع في نفسه أنه إذا أحسنَ عِشْرَتِهِ وَأكرَمَ وِفَادَتِهِ فستكون تربيته خَيرًا مُتَمّمًا لِحُسْنِ اسْتِعْدَادِهِ الْفِطْرِيّ، إِذْ لَا يُفْسِدُ أَخْلَاقَ الْأَذْكِيَاءِ إِلَّا الْبِيئَةُ الْفَاسِدَةُ وَسُوءُ الْقُدْوَةِ[1].

ولكن ما اسم هذا الرجل الذي اشترى يوسف من مصر؟

لَمْ يُبَيِّنِ الْقُرْآنُ اسْمَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنَ السَّيَّارَةِ فِي مِصْرَ وَلَا مَنْصِبَهُ وَلَا اسْمَ امْرَأَتِهِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ كِتَابَ حَوَادِثٍ وَتَارِيخٍ، وَإِنَّمَا قَصَصُهُ حِكَمٌ وَمَوَاعِظُ وَعِبَرٌ وَتَهْذِيبٌ، وتربية وتزكية وتشريع، إلا أن النِّسْوَة فِيمَا يَأْتِي لَقَّبْنَهُ بِلَقَبِ الْعَزِيزِ –وَهُوَ الَّذِي صَارَ لَقَبَ يُوسُفَ بَعْدَ أَنْ تَوَلَّى إِدَارَةَ الْمُلْكِ فِي مِصْرَ– فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَقَبُ أَكْبَرِ وُزَرَاءِ الْمَلِكِ. وَلِلْمُفَسِّرِينَ أَقْوَالٌ فِي اسْمِهِ

1- تفسير المنار (12/ 225) .

وَاسْمُ مَلِكِ مِصْرَ لَيْسَ لِلْقُرْآنِ شَأْنٌ فِيهَا[1].

إعداد يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام للكمال الحقيقي والإنجاز البشري الأعلى:

هنا نعلم كيف ينقل الله تعالى يوسف من حال المنحة بجوار أبيه إلى حال المحنة في تعامل إخوته ووحشة الجب ودواهيه، ثم ينقله من محنة الجب إلى وحشية السيارة وجفاء أولئك الركب، ثم ينقله رابعةً من غدر البشر إلى الإكرام والتعظيم في قصور الأمراء حيث الدر والجوهر، وكل ذلك ليتربى على الْكَمَال الْحَقِيقِيّ الواقعي الذي يؤدي إلى أن يقوم يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام بالإنجازات الكبرى على المستوى الفردي والجماعي، ولا يمكنه أن يحقق هذه الإنجازات إلا إذا اتصف بأكرم الصفات الإنسانية وهي: الْقُدْرَة وَالْعِلْم، فأراد الله تعالى إِعْلَاءَ شَأْنِ يُوسُفَ بِهَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ، وهنا يأتي التعليق الخالد على هذا الجزء من القصة ليبين فضل الله وكرمه ورحمته وحكمه للكون، ولتظهر الصفتان اللتان أعطاهما ليوسف عليه السلام في بنائه النفسي والعقلي:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾(يوسف: 21)

ها هي شخصية يوسف العظيمة تتكون، فقد استكمل المؤهلات في صفة الْقُدْرَةِ والتمكين الذاتي ليتمكن من التأثير العام، وبين الله ذلك في قوله: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

واستكمل المؤهلات في الميدان العلمي، وبين الله ذلك في قوله: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[2]، واللام تدل على أنه مَكَّنه في الأرض في هذه المرحلة ليصل إلى مرحلة تعلم تأويل الأحاديث وهي الرؤى وكلُّ علمٍ نافع، ويتضمن تأويل الأحاديث البصر بعاقبة الأمور، فيتهيأ لتبليغ الْخَلْقِ التَّكَالِيف، ودعوتِهم إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ بأسلوبٍ قويمٍ حصيف، وإرشادِهم إلى المنهاج السوي في إدارة الحياة الدنيوية لتكون عند الله مطية السعادة

1- تفسير المنار (12/ 224) .
2- تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (18/ 435) .

والتشريف، والمعنى لهذه الجملة القرآنية: أي: كما أنقذنا يوسف من أيدي إخوته وقد هموا بقتله، وأخرجناه من الجبّ بعدَ أن أُلقي فيه، نقلناه من ذلِّ العبودية وتلاعب وحوش تجار الآدمية إلى الكرامة والمنزلة الرفيعة عند عزيز مصر، ولنعلمه تأويل الأقوال والحوادث، فيكون ذا عقليةٍ مبصرة، ووعيٍ قائمٍ على التجربة.

المشهد الرابع

قانون العظمة الإلهية: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ (يوسف: 21)

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ (يوسف: 21) الله –جلَّ في علاه– غالبٌ على أمره لا يغلبه فيه أحد، وهنا غلب على أمر يوسف –عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام–، يسوسه ويدبّره ويحوطه، ويقلبه كيف شاء بما يؤدي إلى رفعته بعد إصابته بالضراء، وهو الذي يبني فيه المَلَكةَ ويقيم فيه المؤهلات التي بها يُصلح حالَ الأرض وينصف البؤساء.. إنها الغَلَبة التي بيد الله جلَّ في علاه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ كيف لهم أن يعلموا وهم لا يطلعون على غيب الله؟ كيف لهم أن يعلموا وهم لا يعرفون ما في طي الغيب من الأسرار العظيمة والحكم النافعة العميمة، والتدبيرات الكريمة.

نعم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ أَنَّهُ –تَعَالَى– غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، بَلْ يَأْخُذُونَ بِظَوَاهِرِ الْأُمُورِ، ولم يطلعوا على ما خبأه الله لهم في الغيب المستور، كَمَا اسْتَدَلَّ إِخْوَةُ يُوسُفَ بِإِبْعَادِهِ عَلَى أَنْ يَخْلُوَ لَهُمْ وَجْهُ أَبِيهِمْ وَيَكُونُوا مِنْ بَعْدِ إبعاده قَوْمًا صَالِحِينَ، وقد يكون المرء عالمًا أَنَّ اللهَ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، وَأَقْوَالُهُ صَرِيحَةٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى عِلْمِهِ، وَلَكِنَّ عِلْمَهُ بذلك نظريٌّ كُلِّيٌّ إِجْمَالِيٌّ لَا يُحِيطُ بِتَفْصِيلِ الْجُزْئِيَّاتِ الْمَحْبُوءَةِ فِي مَطَاوِي الْأَقْدَارِ[1]، ولا بكيفية وقوع الإرادة الغالبة للملك الجليل القهار.

قالت الحكماء: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ لا يملك المؤمنون ولا الكافرون ولا الخلق أجمعون دفعَ ما يريده:

فقد أراد يعقوب ألَّا يكيدوا لأخيهم فغلب الله على أمره حتى كادوا، ثم أراد **إخوة** يوسف قتله فغلب أمره حتى لم يقتلوه، ثم أرادوا أن يلقوه في الجب ليلتقطه بعض السيارة

1- تفسير المنار (12/ 225) .

فيندرسَ اسمه فيفنى ويصير مغمورًا، فغلب أمره حتى لم يندرس اسمه وصار مذكورًا مشهورًا، ثم إن الله دفع السيارة إلى الجب البعيد بما سببه لهم من احتياجهم للماء ليجدوه، ولينفذ قضاء الله ذي الجلال والكبرياء، ولهذا قيل: **ألا ربّ تشويشٍ يقع في العالم والمقصود منه سكونٌ واحد، كما قيل: ربّ ساعٍ لقاعد، فيوسف في مكانه، والسيارة في خدمة إيوانه.**

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ باعه السيارة ليكون مملوكًا همه في بطنه وفي حمل المتاع عليه، فغلب أمر الله تعالى حتى صار يوسف -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- مخدومًا مُكْرَم المثوى كأبناء الملوك، والعالم يصدرون عن رأيه، ويأتمرون بأمره ونهيه.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ احتالت امرأة العزيز أن تدرأ التهمة عن نفسها لتلصقها بالبريء المخبت القانت يوسف -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم- وقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾ (يوسف)[1]، فغلب أمر الله تعالى حتى أنطق له شاهدًا من حيث لم تحتسب، فإذا يوسف يزداد رفعةً في المقام الكريم، وينتقل ليعيش بين التكريم والتعظيم.

وقد قيل في حكم الأمثال: العبرة لا تُرى من الحقّ في الحال، وإنما الاعتبار بما يظهر في سرّ تقديره في المآلِ[2].

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾.. تدبّر يوسفُ -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- أن يتخلص من السجن بذكر الساقي، فغلب أمر الله تعالى حتى نسي الساقي ذكره، ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢﴾ (يوسف)، حتى إذا لم يذكره أحدٌ من الأولين والآخرين غلب أمر الله تعالى فأرسل الرؤيا لعقل المِلك ليُحوِج القوم أن يبحثوا عن يوسف -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- ليعبرها، وينال ويدخل باب الرحمة الذي فُتِح له من خلالها.

1- تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (5/ 206) .
2- لطائف الإشارات = تفسير القشيري (2/ 177) .

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾.. في تلك الأثناء أراد إخوة يوسف -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- أن يَخلو لهم وجه أبيهم، فغلب أمر الله تعالى حتى ضاق عليهم قلب أبيهم متذكرًا يوسف غير ناسٍ ثغره وابتسامته، ولا جلوسه واستقامتَه، ثم أرادوا أن يغرّوه باسم القميص والدم والبكاء، فغلب أمر الله تعالى فلم ينخدع أبوهم بما قالوه واتضح الأمر بجلاء، وقال: ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾(يوسف: 18)، وانجلى الأمر عن أجمل التأويل.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾.. احتال إخوة يوسف أن تذهب محبته من قلب أبيه ويصبح كالمنسي القديم، فغلب أمر الله تعالى حتى ازدادت المحبة والشوق في قلبه، ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤﴾ (يوسف)، ثم تدبّروا أن يكونوا من بعده قومًا صالحين تائبين، فغلب أمر الله تعالى حتى أقروا بين يدي يوسف في آخر الأمر بعد عشراتٍ من السنين فقالوا: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾ (يوسف)، وقالوا لأبيهم: ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧﴾ (يوسف).

أجل إنه قانون العَظَمة والملك الإلهي الصارم يتلذذ بترديده المؤمنون الصابرون: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ (يوسف).. ههنا يقف السياق لينبه إلى أن هذا هو تدبير الله الملك الجليل الذي يسبح له الكون بالعشي والإشراق، وبه وبمثله قُدِّرَ ليوسف التمكينُ في **الأرض؛ ليجوب ذكره الآفاق، وترتفع منزلته في السموات الطباق،** وكانت اللأواء والشدة وما قاساه من العناء.. مقدمةً لهذا المجد **وللارتفاع** في المكانة عند سميع الدعاء.. إنه الافتقار والاحتياج إلى الله الغالب.. تجعل العبد القانت مرتفعًا في المطالب والمناقب، ويرى على شدة الظلمة الفرج يلوح، ويشاهد انبلاج الفجر بشذاه يفوح.

وقد ظن المشركون أنهم غلبوا على أمرهم لما أرادوا منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الهجرة.

وقـــرَّرت قريـــشُ أن تمنعـــه من الخروج أو يـرى مصرعه

ولم يخافوا من عقاب ربهم بل مكروا ومكرَ الله بهم
فمر بينهم وهم ينتظرون خروجه لكنهم لا يبصرون
واستخلف الهمام في فراشه من كعليٍّ في ثبات جأشه
واختبأ الصِّديق والنبيُّ في غار ثور وغدا التيميُّ
يقول كاد القوم أن يرونا لو طأطأوا الرؤوس والعيونا
والمصطفى يقول: نحن اثنان ثالثنا منزل القرآن

وكذلك لما منعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه رضي الله عنهم من عمرة الحديبية، فغلب أمر الله تعالى حتى سمى ذلك المنع فتحًا مبينًا، ومَكّن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم به تمكينًا، وفي ذلك قيل:

تبَارَكَ مَنْ أعْطَى مُحَمدًا الإسْرَا وَأحْصَرَه في عام عُمْرَتِهِ قسْرَا
فسُرَّ بذاكَ المُشْركونَ لِجَهلهمْ وعزَّ علَى قَوْمٍ وقَدْ شَهِدُوا بَدْرَا
أذاقكمُ فَقرًا إلَيْه لِتعْلمُوا بأنَّ الغِنَا المَقْصُودَ أنْ تَطْعَمُوا الفَقْرَا
فَمَن لَمْ يَذُقْ هذا الغِنَى في حيَاتِهِ فَقَدْ عَاشَ مِسْكِينًا وإن مَلَكَ الأمْرَا
وَمَا امتَحَن اللهُ الكلِيمَ بفِعْلِهِ وَخِدْمتِهِ للشَّاءِ في مَدينٍ عشْرَا
لِيَقضِيَ مِنْ مَهْرِ الزَّوَاجَة حَقَّه وَلكِنْ لِيَقْضِي لِلمُكالَمَة المهْرَا
وَما كان إبْرَاهِيمُ في المَنْجنِيقِ واللظَى عَادِماً لُطْفاً وَلا نَاقِصاً قَدْرًا
وَلَا ظَمِئَتْ في الوادِ هَاجرُ وابْنُهَا هوَانًا على منْ يَمْلِك السُّحْبَ والقَطْرَا
وَلَا بِيعَ بالبَخْسِ المُكَرْم يُوسُفُ لِيُمْلَكَ لَكِن حُكْمُهُ لِيَلِي مِصْرَا
وفِيمَا رَأَى يَعْقُوبُ مِنْ فَقْدِ يُوسُفٍ مَواعِظُ تَشْفِي مِنْ مُلاحِظِهَا الصَّدْرَا[1]

1- الأبيات لمحمد بن إبراهيم الوزير اليماني في جواب على قصيدة لأخيه الأكبر -رحمهما الله- واساه فيها عندما حصر عن الحج ثلاث مرات.

إنها قدرة الله الغالبة، لا تقف في طريقها قوة.. هو سبحانه وتعالى بالغٌ أمرَه؛ كل يوم هو في شأن.. يمضي الزمان، ويختلف الملَوان، ويمكن الله لمن شاء، ولو تحداه الإنس والجان ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾[1]

وقد ربَّى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه على هذه العظمة الإيمانية في الشعور بتدبير الله للكون، ومن أشهر المواقف ما رواه أحمد والبزار عن عُبيد بن رِفاعة الزرقي عن أبيه رضي الله عنه قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((استووا حتى أثني على ربي)) فصاروا خلفه صفوفًا، فقال: ((اللهم لك الحمد كله. اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت.

اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك.

اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول.

اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف.

اللهم إني عائذٌ بك من شر ما أعطيتنا، وشر ما منعتنا.

اللهم حبب إلينا الإيمان، وزَيِّنه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين.

اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك

1- في ظلال القرآن (4/ 1978) .

وعذابك. اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إلهَ الحق)) [1].

إنها رحلة اليقين العظيمة في ثنايا القانون الثابت الذي لا يتغير–لو كان المرتابون يفقهون – .. قانون ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ (يوسف)

1- البخاري في الأدب المفرد 1 /243، وصححه الألباني، أحمد 3 /424، وقال في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (6 / 107): "ورجال أحمد رجال الصحيح"، وقال الأرناؤوط: "رجاله ثقات عبيد الله بن عبد الله الزرقي إنما هو عبيد بن رفاعة وهم في اسمه هنا مروان بن معاوية الفزاري وقد جاء عنه على الجادة من طرق أخرى .. ولد في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وروى عنه جمع ووثقه العجلي والذهبي وذكره ابن حبان في الثقات وأخرجه الحاكم (1 / 506 – 507) وقال: صحيح على شرطهما وتعقبه الذهبي بقوله : الشيخان لم يخرجا لعبيد وهو ثقة والحديث مع نظافة إسناده منكر أخاف أن يكون موضوعا . وقد اختلف فيه على عبد الواحد بن أيمن فأخرجه النسائي في الكبرى 10446 وهو في عمل اليوم والليلة 610 من طريق أبي نعيم عن عبد الواحد بن أيمن عن عبيد بن رفاعة الزرقي مرسلا".

المشهد الخامس

بلوغ الأشد وتكامل صفات الجمال والجلال

بلغ يوسف -عليه وعلى نبينا وأنبياء الله الصلاة والسلام- أشده، إلا أنه لم يجعل بلوغ أشده في اللهو والعبث واللعب، ولا في المجون والرفث وأحلام الأوهام والكذب، بل أحسن إلى نفسه ترقيًا في مدارج السالكين إلى مولاه، وصار حقًّا شابًا نشأ في عبادة الله، والتمس السعادة بطلب محبته ورضاه، فكافأه الله على ذلك بأن آتاه الحكمة والعلم واصطفاه، وجعله في مقدمة الشباب الصالحين، فقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾ (يوسف).

وبلوغ الأشد يدل على وصول هذا الشابِّ إلى منتهى شبابه وَقُوَّتِهِ ونموه العضلي والجسمي قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَ فِي النُّقْصَانِ، وهذا لا يقتضي عندي أن يكون قد وصل إلى الغاية التي يكون بعدها النقصان والنهاية، بل إن بلوغ الأشد معناه الوصول إلى الغاية التي بها تظهر فيها زهرة الشباب، ويبدو فيها عطره ونسيمه ونشاطه يملأ الجبال والهضاب، ومنها تبدأ تلك الفترة بعد اكتمال النضج الجسدي بالاتجاه نحو اكتمال النضج العقلي، وهذا يكون في وقتٍ مبكر منذ ما بُعيدَ بلوغ الحلم من السنين خلافًا لقول من ذكر أن ذلك كان عند سن ثلاث وثلاثين؛ ولذا ذكر الطبري أقوالًا في الأشد فقيل: يبدأ من الحلم، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه من عشرين سنة، وهو السن الذي أميل إلى وقوع هذه الحادثة المهولة له فيه أو قبله بيسير، وأنت إذا أردت الواقع فانظر إلى هذه المرأة -امرأة العزيز- التي قد أخذها سعار الشهوة، ولم تعد تفرق في سبيل ذلك بين الصحوة والغفوة:

أتظن مثلها ينتظر مجاوزة العشرين لشابٍّ أمامها بلغ من الحسن منتهاه، وهو يزداد مع تنقل مراحل أشده حسنًا في أجمل منظرٍ وأبهاه؟ وأما عمرها هي فإن المعتاد أن يكون عزيز مصر الذي يمثل رئيس وزرائها متزوجًا من فتاة تصغره بنحو عشر سنوات تزيد أو تنقص

قليلًا في مثل تلك القرون، فلو فرضنا أنه كان في حدود الأربعين عندما اشترى يوسف -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- فزوجته تكون بين الخامسة والعشرين والثلاثين، وقد يئس كلاهما من الولد؛ لأنه لما اشترى يوسف عليه وعلى أنبياء الله تعالى الصلاة والسلام قال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ (يوسف: 21)، وإذا كان يوسف قد فارق أباه غلامًا يضعف أن يدفع عن نفسه فمعنى ذلك أن سنه كانت حول العشر السنوات، والمرأة وهي تراه يكبر فلا تجد في طهره ودينه وعبادته وحكمه وعلمه ما يلفت نظرها، وإنما تركز نظرها على أمرٍ واحدٍ: هو أن يكون مستعدًا ليكون خادمًا لشيء واحد هو جسده وشهوته، ومثلها لا تصبر عن مثله حتى يجاوز العشرين، فكيف يكون عظم حرصها على أن تستدرجه ليكون من عصابة الغاوين أو زمر المفسدين؟ ولكن الله كان لهذا العبد الأواب المحسن من الحافظين.

ابتلاء يوسف ليس في موقفٍ واحد مليءٍ بالإغراء بل مرت عليه الفتن تترى

عندما نحاول معرفة السن التقريبي ليوسف -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام -، وتفاصيل الواقع الأسري الذي عاش فيه مع عزيز مصر وأهله فإننا نصل إلى نتيجةٍ واضحةٍ:

إن التجربة التي مر بها يوسف - أو المحنة - لم تكن فقط في مواجهة المراودة في هذا المشهد الذي يصوره السياق، إنما كانت فترة مراهقته كلها مع هذه المرأة بين سن الثلاثين وسن الأربعين، مع جو القصور، وجو البيئة التي يصورها قول الزوج أمام الحالة التي وجد فيها امرأته مع يوسف:

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ (يوسف) و كفى..!

وهي حالة الميوعة للمفاهيم السوية التي يتحدث فيها النسوة عن امرأة العزيز، فيكون جوابها عليهن: مأدبة يخرج عليهن يوسف فيها، فيفتتن به، ويصرحن بالهوى الغالب، فتصرح المرأة:

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ (يوسف).

فهذه البيئة التي تسمح بهذا وذلك بيئةٌ خاصة.. إنها بيئة الطبقة المترفة غالبًا.. بل بيئة المجتمعات التي صارت رغبات النفوس وشهوات الأجساد هي المغامرات المثيرة التي تتناقلها المجتمعات، ويتكلم عنها سادته مع السيدات، ويوسف -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- كان فيها مولى، وتربى فيها في سن حساسة، وعلى الرغم من ذلك إلا أنه صمد صمود الجبال أمام تأثيراتها ومغرياتها وميوعتها ووسائلها الخبيثة.. ولا شك أن المرأة قد حاولت مراتٍ متعددةً أن تغويه وتغريه، ولو كانت المرة التي غلقت فيها الأبواب هي المرة الوحيدة، وصنعت ذلك مفاجئة بلا تمهيد من إغراء طويل، لما كان عسيرًا أن يصمد لها يوسف، وبخاصة أنه هو مطلوب فيها لا طالب [1].

الحماية من افتراس الغرائز الشهوانية:

بناء الحكم والعلم في الشباب هو درع الحماية من أخطار الشهوات والارتياب:

كان هذان الدرعان العظيمان (العلم والحلم) من أهم عوامل الحماية من مخالب الغرائز الشهوانية التي هجمت على الشابُّ التقي النقي يوسف عليه السلام، وقد ذكرهما الله تعالى في قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (يوسف: 22).. تُرى كم كان يوسف في صغره في بيت الأسرة يجتهد في تقليد أبيه في تعبده وتألهه؟ كم كان يقوم مع أبيه ويحاكيه في تصدقه وتنقية قلبه؟.. هنا نعلم لماذا كان في شغل عن هذه الرغبات لتلك المرأة، وفي منأى عن سعار شهوتها.. ولعله ظل يزداد من الله قربًا وعن الآثام بعدًا فتكون المكافأة ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، وإعطاؤه الحكم والعلم كان لسببين:

الأول: المكافأة على التطهر والتزكية والإحسان في تربية نفسه بما يقربه من الرحمن كما قال تعالى بعد ذلك {وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾} (يوسف).

1- في ظلال القرآن 4 /1980.

الثاني: الهبة المحضة من الفضل الغامر، والرحمة الواسعة حيث قال الله جل في علاه: {وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥} (البقرة).

فما هاتان الصفتان اللتان ينبغي أن تكونا أصل التربية المزكية للطاقات الشبابية، وعماد التربية والتعليم؟

أما الْحُكْم فكالْحِكْمَةَ أَصْلُهُمَا حَبْسُ النَّفْسِ عَنْ هَوَاهَا، وَمَنْعُهَا مِمَّا يَشِينُهَا، فَالْمُرَادُ مِنَ الْحُكْمِ الْحِكْمَةُ الْعَمَلِيَّةُ، وَالْمُرَادُ مِنَ الْعِلْمِ الْحِكْمَةُ النَّظَرِيَّةُ، أو كما يروي الطبري عن مجاهد: (حكمًا وعلمًا) قال: العقل والعلم قبل النبوة، ويظهر أن الحكم هنا غير الحكمة فهو أخص منها؛ إذ الحكم هو القدرة الفذة على اتخاذ القرارات الصحيحة وعدم التردد في إيقاع الأمر المناسب في وقته، كما قال تعالى عن يحيى -عليه وعلى نبينا وأنبياء الله أجمعين الصلاة والسلام-: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ (مريم)، وليس الحكم هو النبوة بدليل عطفه عليها في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ (آل عمران: 79)، وقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ (الأنعام: 89)، وقوله ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ (الجاثية: 16)، فالعلم يشير إلى توسع معرفته بالعلوم المتاحة والتجارب المعاصرة، والحكم يدل على قدرته الحازمة الفذة على التعامل مع الأحداث مباشرة بحكمة تامة يصحبها عزمٌ نافذ وحزمٌ قاطع، وقد ظهر ذلك تمامًا في مواقفه المختلفة، ابتداءً من موقفه المتسم بالحكم والعلم مع امرأة العزيز، ثم موقفه الحازم مع النسوة الفاسقات، ثم موقفه في السجن، ثم موقفه مع تأويل رؤيا الملك، ثم موقفه حينما أصر على عدم الخروج من السجن حتى تظهر براءته، ثم موقفه الحازم القوي في طلب إدارة خزائن الأرض؛ إذ لا يوجد من هو أكثر أهليةً منه، ثم مواقفه المختلفة مع إخوانه من بعد.. إنها صفتا (الحكم والعلم) اللتان ينبغي أن تكون على رأس أهداف المخرجات في العملية التعليمية.

فهذا الشابُّ الرائع أوتي الحكم الذي يدل على شخصيته القيادية المبكرة، وقدرته على اتخاذ القرارات الصائبة في وقتها المناسب دون تردد، وأوتي العلم الذي يشمل العلم الوهبي

كتأويل الرؤى، والعلم الكسبي مما يحتاج الناس أن يرجعوا إليه فيه في أمور حياتهم كما صنع في وضع الخطط الاقتصادية لمواجهة سنوات الجفاف.

ويوسف الكريم ابن الكرام – عليهم السلام – بما أوتيه من حكم وعلم كان يحمى نفسه في مواطن الشبهات والشهوات، ويقترب من الأفعال التي ترضي رب الأرض والسموات – وهذا من الحكم والتحكم بنفسه وأهوائها– فكافأه الله وآتاه العلم ليأنس بربه، ويطمئن بخالقه، لسان حاله:

هاتِ ما عندك هاتِ يا زمان الأزماتِ
أنا لا أخشاك فانثر كل ما في الجعباتِ
وارم من نبلك ما شئت فلن تثني قناتي
هل ترى الإعصار يوماً هزَّ شُمَّ الراسياتِ
أنا محميٌّ بدرع من يقينٍ وثباتِ
معي الإيمان يهديـ ـني ببحر الظلماتِ
معي الإخلاص ينجي مركبي والموج عاتي
أنا بالله عزيز عزتي في سجداتي
أنا لله ولي لا لعزى أو مناةِ
أنا عبد الله لا عبـ ـد الهوى والشهواتِ

بشرى رب العالمين بهبة الحكم والعلم لكل المحسنين

ختم الله تعالى هذا البيان للفضل الذي آتاه الله يوسف –عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام– بما يرفع الهمم، ويفتح أبواب التنافس نحو القمم فقال مبشرًا الناس: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾ (يوسف)، فالأمر –كما قال الطبري–: "كذلك نجزي من أحسن في عمله، فأطاعني في أمري، وانتهى عما نهيته عنه من معاصيّ". فكل من سارع في

الإحسان والإتقان للأعمال الصالحة يؤتيه الله الْحُكْمَ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَالْعِلْمِ الَّذِي يُزَيِّنُهُ وَيُظْهِرُهُ، فلِكُلِّ مُحْسِنٍ حَظُّهُ مِنَ الْحُكْمِ الصَّحِيحِ وَالْعِلْمِ النَّافِعِ بِقَدْرِ إِحْسَانِهِ، وَبِمَا يَكُونُ لَهُ مِنْ حُسْنِ التَّأْثِيرِ فِي صَفَاءِ عَقْلِهِ، وَجَوْدَةِ فَهْمِهِ وَفِقْهِهِ، غَيْرُ مَا يَسْتَفِيدُهُ بِالْكَسْبِ مِنْ غَيْرِهِ، لَا يُؤْتَى مِثْلَهُ الْمُسِيئُونَ بِاتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ وَطَاعَةِ شَهَوَاتِهِمْ[1]، ووصف الحكماءُ المحسنين فقالوا: "هم الذين قطرت عليهم سحائب الأشجان، ونصبوا رُكَبهم والأبدان، وتَسَرْبَلُوا بالخوف والأحزان، وشربوا بكأس اليقين، ورَاضُوا أنفسهم رياضة المُتقين، كَحَّلُوا أبصارهم بالسَّهر، وغَضُّوها عن النَّظر، فقاموا ليلهم أَرَقًا، وتبادرت دموعهم فرَقًا، حتى ضَنِيَت منهم الأبدان، وتغَيَّرت منهم الألوان، صَحِبُوا القرآن بأبدان ناحِلَة، وشِفَاه ذَابِلة، ودُمُوع وَابِلة، وزَفرَات قاتلة، فحَال بينهم وبين نعيم المُتَنَعِّمين، وشغلهم عن مَطَامع الرَّاغبين، فَاضَت عَبَراتهم من وَعِيده، وشَابت ذَوَائِبهم من تهديده وتشديده..

سمعوا إعلان (سارعوا).. فكسلهم مانعوا، وشهواتهم دافعوا.. ورحمةَ ربهم طالعوا.. فسارعوا، وسارعوا، وسارعوا.. **يبغون حسن المآب، ورضى الملك الوهاب..** ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ (الزمر)."

ولذا سُئِل ابن تيمية –رحمه الله– : ما دواء من تَحَكَّمَ فيه الداء، وما الاحتيال فيمن تسلط عليه الخَبال، وما العمل فيمن غلب عليه الكسل، وما الطريق إلى التوفيق، وما الحيلة فيمن سطت عليه الحَيْرة، إنْ قَصَدَ التوجه إلى الله مَنَعَهُ هواه... وإنْ أراد يشتغل لم يطاوعه الفشل؟

فأجاب –رحمه الله– :

دواؤه الالتجاء إلى الله تعالى، ودوام التضرع إلى الله سبحانه، والدعاء؛ بأن يتعلم الأدعية المأثورة، ويتوخى الدعاء في مظان الإجابة، مثل آخر الليل، وأوقات الأذان والإقامة، وفي سجوده، وفي أدبار الصلوات.

1- تفسير المنار (12/ 226) .

ويضم إلى ذلك الاستغفار؛ فإنه من استغفر الله ثم تاب إليه مَتَّعَهُ متاعًا حسنًا إلى أجل مسمى.

وليتخذ وِرْدًا من الأذكار طرفي النهار ووقت النوم .

وليصبر على ما يَعْرِضُ له من الموانع والصوارف؛ فإنه لا يلبث أن يؤيده الله بروح منه، ويكتب الإيمان في قلبه.

وليحرص على إكمال الفرائض من الصلوات الخمس بباطنه وظاهره؛ فإنها عمود الدين.

وليكن هِجِّيرَاه: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؛ فإنه بها تحمل الأثقال، وتكابد الأهوال، وينال رفيع الأحوال.

ولا يسأم من الدعاء والطلب؛ فإن العبد يستجاب له ما لم يعجل فيقول: قد دعوتُ فلم يستجب لي.

وليعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا؛ ولم ينل أحد شيئًا من جسيم الخير –نبي فمن دونه– إلا بالصبر، والحمد لله رب العالمين[1].

1- جامع الرسائل 7 /446.

المشهد السادس

المراحل الخطيرة لإغواء الجاذبية الجنسية

المرحلة الأولى: بدايات المكر الكبار، وتخطيط الذين يريدون للناس اتباع الشهوات وحمل الأوزار:

مرَّت الأيام على هذا الشابِّ الذي نشأ في عبادة ربه، ولكن جسده ينمو، وهو الآن قد بلغ أشده، والمرأة التي لا تعرف ربها ترى ذلك منه، وتنظر إليه، فحاولت (التي هو في بيتها) مرارًا إثارة الغريزة البشرية في نفس الشابُّ الذي تظهر رجولته، وتزداد رسوم الصفاء الصادقة على وجهه.. فما هي مشكلته؟ إنه في بيتها، وانظر كم تختصر هذه الجملة القرآنية من المعاني والصور: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ (يوسف:23).. إنها تترك لك الخيال لتطلقه بعيدًا في الشعور بالكم الهائل من المحاولات التي تبذلها لإيقاعه في شباك الإغواء الشيطاني مستغلة الظروف المحيطة لصالحها، ومن هذه الظروف الخطيرة أنه ﴿فِي بَيۡتِهَا﴾ فهو غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، فيتيسر لها أن تقوم بإثارته وإغرائه للقيام بالأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشر، وتستفيد في ذلك من ظنّ زوجها والمجتمع من حولها أنها تعامله معاملة الأم، ولكنه أمام هذه السفالة منها ظل طودًا شامخًا أبيًا، فظلت تراوده، والمراودة كلمةٌ تدل على محاولاتٍ **هائلةٍ** من قبلها لإغوائه وإغرائه وهو في كل ذلك لا يلتفت لأساليبها الخسيسة، ولا تفتر عزيمته الصادقة عن مقاومة الداعي الشيطاني، ولا يخور أمام الإغراء الذي تنجذب إليه النفس الأمارة بالسوء، بل ينسل بعزمٍ صلبٍ من أفخاخ الفجور، وشرك الخطوات الشيطانية ومصائد الشرور، ويصور الرافعي – رحمه الله تعالى– ذلك[1] مبينًا أن هذه مَلِكةٌ تعشق فتاها الذي ابتاعه زوجها بثمن بخسٍ، ولكن أين مُلكها وسطوة زعامتها في تصوير الآية الكريمة؟ لم تزد الآية على أن قالت: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي﴾ و﴿ٱلَّتِي﴾ هذه كلمة

1- وحي القلم (1/ 95) بتصرف.

تدل على كل امرأة كائنةً من كانت؛ فلم يُبق العشق مُلكًا ولا منزلة؛ وزالت الملكة من الأنثى!.

وأعجبُ من هذا: كلمة ﴿وَرَاوَدَتْهُ﴾ وهي بصيغتها المفردة حكايةٌ طويلةٌ تشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوانٍ من أنوثتها: لونٍ بعد لون؛ ذاهبةً إلى فنٍّ، راجعةً من فنٍّ؛" لأن هذه الكلمة العجيبة تدل على شيءٍ وتختزن أشياء:

تدل على **تَكْرِير** الْمُحَاوَلَةِ؛ لأنها جاءت بِصِيغَةِ الْمُفَاعَلَةِ.. إنها كلمة رهيبة (المراودة).. وَالْمُفَاعَلَةُ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي التَّكْرِيرِ، وهي مُشْتَقَّةٌ مِنْ رَادَ يَرُودُ، إِذَا جَاءَ وَذَهَبَ، فهي تحاول اصطياده مرارًا.

وتختزن ثلاثة معانٍ:

أما المعنى الأول: فكثرة التردد إلى الشي.

وأما المعنى الثاني: فالمخادعة المتلطفة.

وأما المعنى الثالث: فالمنازعة لشيءٍ لا يريده الآخر، فحقيقتها كما يقول الراغب: أن تنازع غيرك في الإرادة، فتريد منه غير ما يريد، كما قال إخوة يوسف –عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام–: ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي نحتال عليه ونخدعه عن إرادته ليرسل بنيامين معنا، كما أنها مأخوذةٌ من رَوَدَان الإبل في مشيتها: عندما تذهب وتجيء في رفق كما قرر الزمخشري، وتتضمن معنى الخداع في الوقت ذاته؛ لِأَنَّ الْمُرَاوِدَ يَتَلَطَّفُ فِي طَلَبِهِ تَلَطُّفَ الْمُخَادِعِ وَيَحْرِصُ حِرْصَهُ، كما تقتضي كثرة المحاولات وتكرارها.

وهذه المعاني الهائلة التي تختزنها هذه الكلمة تعبر عن قافلة من الصور الرهيبة التي تظهر حيرة هذه المرأة العاشقة، واضطرابها في حبها؛ ومحاولتها أن تنفذ إلى غايتها؛ كما تصور كبرياء الأنثى إذ تحتال وتتفنن في عرض ضعفها الطبيعي كأنما الكبرياء شيء آخر غير طبيعتها؛ يصاحبه امتناعٌ متكلف، أو مواقف تبين أنها في غاية الحَيرة، أو مظاهر اضطراب من جهتها، وإن كانت الطبيعة من وراء ذلك مندفعةً ماضيةً مصممة، ولكنها ما زالت

تراوده خفيةً بخداع رهيب عسى أن توقعه في أسر عبودية الشهوة، ووحل ذل الهوى.

ثم قال الله تعالى مصورًا هدفها الأساسي من هذه المراودة: {عَن نَّفْسِهِۦ} ليدل على أنها لا تطمع في سمو دينه، وطهارة أخلاقه.. هي لا ترغب في رقي تعامله، وبراءة تفكيره، وجاذبية صدقه، بل تطمع في إشباع غريزتها؛ لذا كانت كل هذه المحاولات لتراوده عن نفسه.. إنها لا تريد إلا نفسه لتملأ بها نزواتها الحيوانية، فهي تعرض ما تعرض لهذه الغاية وحدها، وترى الآية تُصرّح بذلك ولكن في أدبٍ سامٍ كل السمو، منزهٍ غاية التنزيه، مرتفعٍ أعلى الارتفاع، عالٍ أجمل العلو، والمعنى: "إن المرأة بذلت كل ما تستطيع في إغرائه"، إلا أنَّ الشابُّ المحسن منذ نعومة أظفاره في اعتصامٍ دائم بربه، وانتصارٍ عظيم على حبائل الشيطان، ونورٍ عظيمٍ يملأ جوانب دربه، وهذا من أعظم ما يقرب نظر الله لعبده -نظرًا بالمعنى الخاص- ليتخذه ربه له وليًّا، ويقربه نجيًّا[1].

وقد أكبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم همة هؤلاء الشباب، وبوأهم الأمكنة العالية، وعجَّل لهم بالبشرى الرائعة التي سيجدونها لو دربوا أنفسهم على ارتقاء جسور العفة السامقة الرائعة، فقد روى أحمد عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((إن الله عز وجل ليعجب من الشابُّ ليست له صبوة))[2]، وقد وصف هذا الشابُّ ذا النفس العلية الإمام السيوطي فقال:

وَمَنْ تَكُونُ نَفْسُهُ أَبِيَّهْ ... يَجْنَحُ لِلْمَرَاتِبِ الْعَلِيَّهْ

وَمَنْ يَكُونُ عَارِفًا بِرَبِّهِ ... مُصَوِّرًا لِبُعْدِهِ وَقُرْبِهِ

رَجَا وَخَافَ فَأَصَاخَ فَارْتَكَبْ ... مَأْمُورَهُ وَمَا نُهِي عَنْهُ اجْتَنَبْ

أَحَبَّهُ اللهُ فَكَانَ عَقْلَهُ ... وَسَمْعَهُ وَيَدَهُ وَرِجْلَهُ

وَاعْتَدَّهُ مِنْ أَوْلِيَاهُ إِنْ دَعَاهْ ... أَجَابَهُ أَوِ اسْتَعَاذَهُ كَفَاهْ

1- المقصود أن كل ذاكرٍ لله داعٍ بلسان المحبة والافتقار فهو مناجٍ لربه، وليس المراد المناجاة الخاصة مثل ما ورد في وصف موسى عليه السلام.
2- أحمد 4 /151 برقم 17409، وحسنه لغيره الأرناؤوط.

المرحلة الثانية ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ (يوسف: 23) **إنه الحصار.. محاولة عباد الهوى لتدمير عزيمة الصادقين الأبرار:**

لما أكثرت هذه المرأة من مراودته استعصم الشابُّ وتمنع بلطفٍ ورفقٍ.. أبى بجمال إيمانه، وكمال إيقانه، واستحضاره لعظمة الله ورغبته في الفوز برضوانه.. استعصم لئلا يقع في الفحشاء.. لكن هذا لم يؤثر في تفكير المرأة، ولم يُعِدْ إليها صوابها، ولا أزهق باطلها.. بل لقد زاد رغبتها أوارًا، وشهوتها استعارًا.. فبدأت عابدة ذاتها تفكر سريعًا أو قد أعدت الأمر مسبقًا.. فانتقلت إلى أسلوب فرض الأمر الواقع، وهو أسلوبٌ أدهى وأخبث لتدمير هذه النفس السامية سمو السماء، وَلَوْ رَأَتْ مِنْهُ أَدْنَى مَيْلٍ إِلَيْهَا وَهِيَ تَخْلُو بِهِ فِي مَخَادِعِ بَيْتِهَا لَمَا احْتَاجَتْ إِلَى مراودتها بما يذل عزتها، ويربك ما تظهره للناس من سمتها، وَلَمَا خَابَتْ فِي التَّعْرِيضِ لَهُ بِالْمُغَازَلَةِ وَالْمُهَازَلَةِ، ولكنها اضطرت أن تتَنَزَّلَ إِلَى الْمُكَاشَفَةِ وَالْمُباذلة، فتوصلت إلى تقديم آخر أسلحة الإغواء لتحقيق نزواتها الشهوانية، وأعدت العدة لتسقط عزم عزيمته، وتوقعه في فخاخها الشيطانية، فانطلقت بسعارها المجرم ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ (يوسف: 23) نعم غلقت الأبواب.. إنها تحاول محاصرة ذلك الشابُّ القانت الأواب.

وانظر معي إلى القرآن وهو ينقل الحدث: لم يقل الله –تعالى ذكره– (أغلقت) بل قال: ﴿وَغَلَّقَتِ﴾، وهذه الكلمة الثقيلة المشددة لها قوتها وجرسها الدال على صورتين:

الصورة الأولى: صورة التغليق المحكم الوثيق للأبواب: وهذا يعكس شدة حرصها على سدِّ أي مكانٍ يُمْكِن له الهرب منه، ومنعِ أي سبيلٍ يجعل من في الخارج يمكنه الاطلاع على ما يحدث في الداخل.

الصورة الثانية: صورة حرصها على تغليق كل الأبواب المؤدية إلى ذلك المكان، فلم تغلق بابًا واحدًا بل جميع الأبواب الخارجية والداخلية: فلما يئست، ورأت منه محاولة الانصراف والتمنع والتعفف عن محاولاتها الأولى، أسرعت في ثورة نفسها مهتاجةً تتخيل القفل الواحد أقفالًا عدة، وتجري من بابٍ إلى باب، وتضطرب يدها في الأغلاق والإغلاق، كأنما تحاول سد الأبواب بالحجارة سدًّا محكم الوَثاق وليس مجرد إغلاقها فقط، وهذا الإغلاق للأبواب

لا لمنع الخارج من الدخول ورؤية الأسرار فقط، بل هو يجمع إلى ذلك أن يكون كالحصار يمنع الداخل من الفرار، وكل هذا نستنبطه من قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾، فهاتان الكلمتان تصوران الأمر تصويرًا عجيبًا يدل على مدى شعورها بنفرة الشابُّ من حمأة الشهوة المحرمة التي تردت هي فيها وأصرت عليها وأبت منها المتاب.. تدل هاتان الكلمتان على مكرها الكبار حيث ظنت أنها عندما أحكمت **الإغلاق فلن يجد الشابُّ سبيلًا لأي فرار، وسيرضخ للطبيعة الإنسانية المنغرسة فيه**.. عندها تخور قواه، ويذهب عزمه ويضعف أمام غواية الفجار.. أظنها راهنت على أن الجبل الصلد يخور، والبناء المحكم يتحول أمام قوة الشهوة الجسدية إلى ضعفٍ متهالك وبوار.. إن تفكيرها فقط يدور حول ذلك .. لم تعلم أن هناك أنوارًا ربانية تحرس المخلصين، وحصنًا من خشية الله تعالى يحمي المحسنين.

المرحلة الثالثة: التصريح بعد التلميح:

ولما غَلَّقت الأبواب أقبلت يسبق ضجيج مجيئها خطواتها، فهي تريد لفت النظر، وأن تحصر في مرآها الفِكَر، وعندها أرادت إلقاء كلماتها النهائية لتدمير عزيمة الشاب، ولكنها لربما فاجأته بظهورها في زينتها، وأغرته بتبرجها وبحركاتها، ويا لحركات الأنثى إذا استشرفها الشيطان وغاب عنها خوف الرحمن، لكن الشابُّ ظل على استعصامه بربه، وخوفه من خالقه، واستشعاره –لو وقع– بقبح ذنبه، فما هو المقدار من الهيجان عند السكران الذي يأبى إلا أن يقضي وطره، فتشتعل في قلبه النيران.. لربما انتابها شيء من الإحباط والإحراج حينها، وقامت تُصَرّحُ بما يعكس ما في نفسها من الاعوجاج، وبما ظنت أن جسدها ينوب عنها في الكلام، ويقطع من المتمنعين الفرار والاعتصام.. فظنت أنها ستلقي عليه سحرًا عندما قالت أخيرًا: ﴿هَيۡتَ لَكَ﴾..

أما سَبَبُ اخْتِيَارِ هذه الكلمة في القرآن المجيد فلأَنَّهَا أَحْصَرُ مَا يُؤَدِّي الْمُرَادَ بِأَكْمَلِ النَّزَاهَةِ اللَّائِقَةِ بِالذِّكْرِ الْحَكِيمِ.. فما هذه الكلمة التي اختارتها بعناية لتظن أنها ستكون شبكتها الآسرة لهذا الشاب؟

أما (هيت) فهو اسم فعل أمرٍ، أي: بادر واستعجل وقم لحاجتك؛ فقد تهيأت لك، وهذه الكلمة التي هي اسم فعلٍ تختزن عددًا عظيمًا من الكلمات والمشاعر والحركات التي قامت بها تلك المرأة، فهذه الكلمات الصريحة المتبرجة المثيرة، وهذه الدعوة السافرة الجاهرة الغليظة لا تكون أول دعوةٍ من المرأة، إنما تكون الدعوة الأخيرة، وقد لا يمكن أن تقولها أبدًا إذا لم تضطر إليها المرأة اضطرارًا.

إن الفتى يعيش معها وقوته وفتوته تتكامل، وأنوثتها تصبر وتتصابر، ولا بد أنها قدمت قبلها إغراءاتٍ شتى خفيفة لطيفة، قبل هذه المفاجأة الغليظة العنيفة [1].

ومن معانيها: تهيأت لك لتصنع ما شئت، ويدل على ذلك قراءة هشام عن ابن عامر ﴿هئتُ﴾ أو كما قال الطبري: "هلمَّ لك، وادن وتقرَّب"، ويصور الرافعي عظمة يوسف عليه الصلاة والسلام هاهنا فيقول: "ومعناها في هذا الموقف: أن اليأس قد دفع بهذه المرأة إلى آخر حدوده، فانتهت إلى حالةٍ من الجنون بفكرتها الشهوانية، ولم تعد لا ملكةً ولا امرأةً، بل أنوثةٌ حيوانيةٌ صِرفةٌ، متكشفةٌ مصرحةٌ، كما تكون أنثى الحيوان في أشد اهتياجها وغليانها.

هذه ثلاثة أطوار يترقى بعضها من بعض –ملكة تنزل من حشمة الملك إلى أن تكون مجرد امرأة، ثم تنزل إلى المنزلة البهيمية الحيوانية–، وفيها طبيعة الأنوثة نازلةً من أعلاها إلى أسفلها، فإذا انتهت المرأة إلى نهايتها لم يبق وراء ذلك شيء تستطيعه أو تعرضه"، كأن الشاعر محمود آدم لمس هذا التحريض السافر من الشياطين المنبعثة من هذه المرأة فتصورها تفصل ذلك ليوسف عليه السلام قائلة:

امدد يديك فإنما أنا زهرة تواقة للحب ذات تضوع

خلقت من الطين الدني لكنها تسمو إليك من المحل الأرفع

1- في ظلال القرآن (1980/4).

فارجع عن السوء الذي أضمرته وأطـع شبابي واستجب لتضرعي

وهنا نذكر قول الألبيري مذكرًا من وقع له هذا الموقف:

نسيتُ يومي وَطولَ نومي وسوف أُنْسى كَمَا نَسيتْ
وشدتُ يَا هادمي قصورًا نعمت فِيهِنَّ كَيفَ شيتْ
معتنقا للحسان فِيهَا مستنشقا مسكها الفتيتْ
تسحب ذيل الصِّبَا وتلهو بآنساتٍ يقلن هيتْ
فاذكر مِهادي إلى التنادي وامهد لَهُ قبل ما يفوتْ
فَعَن قريبٍ تكون طُعمي سخطتُ يَا صَاح أم رضيتْ

المشهد السابع

عظمة البيان اليوسفي أمام سعار محبي الشهوات المحرمة:

أصدر يوسف -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- وهو يواجه امرأة العزيز كلامًا مكونًا من ثلاث جمل، بل قل أصدر ثلاثَةَ بياناتٍ مدويةً ينوب كل واحدٍ منها عن كتاب، ويفترض أن يكون مادةً دراسيةً في مناهج الفكر والأخلاق للشباب، ويستبين من خلالها جمال الثبات أمام حبائل الشهوات:

فالبيان الأول قال فيه: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ إنه حصن الشباب العظيم، ودرع الصادقين القويم:

يا للعظمة: انظر إلى هذا الشابُّ كيف كان معتزا عليها بالديانة والأمانة، والترفع عن الخيانة، وحماية شرف البيت الذي يقيم فيه وغمره بأجمل الحفظ والصيانة، فهذه الكلمة كانت ركنًا عظيمًا وحصنًا شديدًا قويمًا وجد فيه المعاذ والملاذ والحماية والأمن.

فعندما ضجت جدران البيت من هذه الجرأة الآثمة بقول امرأة العزيز: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ لجأ يوسف -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- إلى معالجة الأزمة العظيمة التي تريد امرأة العزيز الإيقاع به فيها، واتخذ القرار المناسب الحازم في الوقت المناسب اللازم لإنقاذ نفسه من هذه المحنة، وهنا يستبين بجلاء معنى الحُكْم الذي آتاه الله تعالى وقال عنه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (يوسف: 22).

والخطوة الرائعة التي اتخذها هي: أن يُصرّح بأعظم ما يحميه ويعصمه، ويبين ذلك بأقوى **العبارات التي تدمغ الباطل وتقصيه بل وتقصمه**، فلم يكتف بالسكوت فقط مع التفكير المحض، فلن تتركه سهام الشيطان وغواية المرأة بالافتتان، وقد عبر يوسف -عليه

السلام- عن امتناعه بصوتٍ قوي، وعباراتٍ جازمة حازمة وفؤادٍ حاضرٍ زكيٍّ نقيّ، حتى يشعر بالحماية الربانية، والعصمة من الغواية الشيطانية فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾.

هداه الله تعالى بهذه الجملة المجلجلة ليبين لنا أعظم الوسائل فعاليةً لمعالجة مثل هذا الخطر: التصريح والتكرير بما يدور في النفس وما يجول به التفكير؛ فلا يقف الإنسان صامتًا يظن أن مجرد الشعور بحرمة مثل هذا الفعل المجرم كافيًا للحماية من حبائل الشيطان، فهنا ازداد ظهور عَظَمة الرجولة السامية المتمكنة في معانيها، فقول يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ عسى أن يوقظ ضمير المرأة في المرأة.. عسى أن يؤكد على معاني اليقين والخوف من رب العالمين.. عسى أن يطلب حمايته من عبث الشياطين.. أمام تلك الدعوة الفاجرة ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ يقول: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾، وتعال لتشعر لمحمود آدم وقد تملكت قلبه هذه الجملة الحاسمة المبتهلة، ففصلها في قوله:

فأجبت في فزع: معاذ الله تلـ ـك خطيئة، كُفِّي فلن تجدي معي
يا من رجتني أن أطيع شبابها هذا رجاء صغيرة ليست تعي
أدنيت من شفتيك كاسات الهوى وأنا أخاف عليك أن تتجرعي
صوني جمالك أن يكون غواية للطامعين وللخلاعة فاخلعي
وتذكري يوم الحساب، وآمني هذا طريقك للمحل الأرفع

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ هذه الكلمة المباركة مفتاحٌ لكل عصمة، تلوح بها أعظم رحمة وأجمل نعمة، وهي الكلمة التي قالت معناها مريم -عليها السلام- لِلْمَلَكِ الَّذِي تَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾(مريم).. هذه الكلمة ينبغي أن يجعلها الشابُّ زاده، ويجب أن يجعلها الإنسان شعاره ودثاره، وعدته وعتاده؛ فهي غوثه في ملمات الفتن ومظلمات الأهواء ومكروهات المحن:

ونساء الأرض لما أن بدت أقبلت نحوي وقالت لي: إليا

فتعاميت كأن لم أرها عندما أبصرت مقصودي لديا
كيف ألقى الله ربي آثمًا يوم حشر الناس إذ غُلَّت يديا
بئست اللذة إن كان بها غضب الجبار والسخطُ عليا
فمعاذ الله هذي صيحتي قالها يوسف. قلها يا أُخَيا

وهكذا "لما غلّقت عليه أبواب المسكن فتح الله عليه باب العصمة، فلم يضرّه ما أُغلق بعد إكرامه بما فتح" [1].. لقد نال رحمة ربه واستحقها.. بل لقد أحاطت به رحمات ربه -جلَّ مجده-.

وحسب هذا الشابُّ جائزةً وعظمةً في ساعةٍ كهذه الساعة العصيبة -إن هو استعصم وطلب واستعاذ ربه- أن يظفر بظل عرش الله تعالى الذي روى حكايته البخاري عن أبي هريرة عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- قال: ((سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: -ومنهم-: ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله)) [2].

وأما البيان الثاني فقد أعلنه يوسف صريحًا فقال فيه: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ (**يوسف**: 23).

انظر لإعجاز الكلام، وبلاغة البيان اليوسفي، فالضمير في (إِنَّه) يَجُوزُ أَنْ يَعُودَ إِلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ، وَيَكُونُ رَبِّي بِمَعْنَى خَالِقِي.

وَيَجُوزُ أَنْ يَعُودَ إِلَى مَعْلُومٍ مِنَ الْمَقَامِ وَهُوَ زَوْجُهَا الَّذِي لَا يَرْضَى بِأَنْ يَمَسَّهَا غَيْرُهُ، فَهُوَ مَعْلُومٌ بِدَلَالَةِ الْعُرْفِ، وَيَكُونُ رَبِّي بِمَعْنَى سَيِّدِي.

1- لطائف الإشارات = تفسير القشيري (2/ 177).
2- البخاري 1 /168 برقم 660.

وَهَذَا مِنَ الْكَلَامِ الْمُوَجَّهِ تَوْجِيهًا بَلِيغًا حُكِيَ بِهِ كَلَامُ يُوسُفَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- إِمَّا لِأَنَّ يُوسُفَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- أَتَى بِمِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ فِي لُغَةِ الْقِبْطِ، وَإِمَّا لِأَنَّهُ أَتَى بجملتين منفصلتين كلاهما يبين عذره في امتناعه عن ركوب هذه الجريمة، فَحَكَاهُمَا الله تعالى فِي الْقُرْآنِ بِطَرِيقَةِ الْإِيجَازِ وَالتَّوْجِيهِ.

فكأنه قال لها:

كيف تريدينني أن أعصي (ربي) الله تعالى، وهو الذي أحسن إلي فصرف عني كيد الكائدين من إخوتي، ثم نقلني من كربات الجب وتيه الخوف والحزن والظلمات إلى عز الرعاية ودفء الحماية والنعم السابغات؟

وكيف تريدين مني أن أخون (ربي) أي: سيدي الذي رباني وأحسن مثواي وائتمنني على عرضه وبيته وغَيبته؟

وأما البيان الثالث فقد جزم فيه بقاعدة ربانية: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾(يوسف)، والظلم وضع الشيء في غير موضعه، ومن أعظم الظلم وضع النعمة العظيمة كالقوة التي أودعها اللهُ الإنسانَ في مكانٍ حَرَّمه الرحمن، ومن أعظم الظلم اللهو بالجمال الإنساني ليصبح رديفًا للعبث الشيطاني، ومن أعظم الظلم خيانة الأمانة، وغش الديانة، والتلاعب بما يجب فيه الحفظ والصيانة، فأي فلاحٍ يمكن أن يحققه المرء بظلمه، وأي نجاحٍ أو إنجازٍ يمكن أن يجده الظالم في حياته؟

وهذه البيانات الثلاث مؤَكَّدةٌ تأكيدًا عظيمًا بمؤَكِّداتٍ لفظيةٍ مثل (إن) التي تزيد التوكيد رسوخًا، والاستعصام قوة، فتبعد ضعفًا ورضوخًا.

وترتيب البيانات الثلاثة العظام، والإعلانات الفخيمة الجسام في غَايَةِ الْحُسْنِ، فَقَوْلُهُ: (مَعاذَ اللَّهِ) إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ حَقَّ اللَّه تَعَالَى يَمْنَعُ منْ هَذَا الْعَمَلِ، ولا يمتنع الجسد الإنساني

إلا بمعاذ الله العظيم، وركنه الشديد القويم.

وكما أن ملجأ الله وحصنه هو الذي يرعاه الإنسانُ، ويرعى الإنسانَ تقديمًا لحق الله، فإن حُقُوقَ الْخَلْقِ وَاجِبَةُ الرِّعَايَةِ والحماية والصيانة، فيَقْبُحُ مُقَابَلَةُ إِنْعَامِ سيد البيت المربي وَإِحْسَانِهِ بِالْإِسَاءَةِ: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾، وهَذِهِ اللَّذَّةُ إن وقع فيها الإنسان فهي لَذَّةٌ قَلِيلَةٌ يَتْبَعُهَا خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا، وَعَذَابٌ شَدِيدٌ فِي الْآخِرَةِ، وَاللَّذَّةُ الْقَلِيلَةُ إِذَا لَزِمَهَا ضَرَرٌ شَدِيدٌ، فَالْعَقْلُ يَقْتَضِي تَرْكَهَا، وإلا حلَّ الخسار مكان الفلاح، وجاء البوار مكان الفوز والنجاح، وأعظم الخاسرين هم الظالمون: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾.

أجل! إنه لا يفلح الظالمون، وكيف يفلحون وهم يزرعون الفساد في الأرض.. كيف يفلحون وهم يزرعون ذل عبادتهم لذواتهم وشياطينهم طمعًا فيما لا يحل لهم، وقد قال ابن عطاء رافعًا الأنظار نحو أنقى النقاء: "ما بسقت أغصان ذل إلا على بذور طمع".

ضراوة الرغبة الآثمة تعمي البصر والبصيرة:

هاهنا يصور القرآن الكريم "المشهد العاصف الخطير المثير كما يرسمه التعبير":

لقد جمعت بيانات الجواب اليوسفي على العَرْضِ المشين المجرم من امرأة العزيز مشاعل نورانيةً عديدةً، منها:

الِاعْتِصَامُ وَالِاعْتِزَازُ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ، وَالْأَمَانَةُ لِلسَّيِّدِ صَاحِبِ الدَّارِ، وَالتَّعْرِيضُ بِخِيَانَةِ امْرَأَتِهِ لَهُ الْمُتَضَمِّنِ لِاحْتِقَارِهَا.. وهذه المشاعل بدلًا من أن توقظها أَضْرَمَت في صَدْرِهَا نَارَ الْغَيْظِ وَالِانْتِقَامِ، وضاعفت هيجان نيران الْغَرَامِ، وعلى الرغم من هذه البيانات الثلاثة وقوتها إلا أن ذلك لم يكسر من نزوتها، ولم يقلل من حدة شهوتها، شأن العِشْقِ الذي يغلق عقل صاحبه. وسبب ذلك أنها أطلقت لنفسها العنان خلف خطرات الشيطان في البداية، واستمرت تتمنى السوء وتهواه، لم تغلق أبوابه، ولا خشيت غوائل الاستمرار فيه، ولا خافت

مآبه، ولذا كانت حماية الإسلام للحياة الإنسانية من النزوات الشيطانية تبدأ من (غض البصر)، وتصل إلى التحفظ اللائق في اللباس والمدخل والمخرج والمنظر، وهو ما بينه قول ذي القوى والقُدَر: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ﴾ (النور).

وإذا اتبع المرء خطوات الشيطان انتقل من ناظرٍ متفكهٍ بالمنظر والعيان إلى عاشقٍ تغشاه سكرة الهذيان، فيصعب عليه إلا أن يفكر بشيءٍ واحدٍ فقط هو قضاء شهوته، وإكمال رغبته، وإفناء طاقته، ولذا حرَّر ابن القيم المسألة في كتابه العجيب (روضة المحبين ونزهة المشتاقين)، وبين أن مبادئ العشق وأسبابه اختيارية، إلا أن نهاياته أشبه بالاضطرارية لشدة سطوتها على النفس كما قيل:

تولع بالعشق حتى عشق فلما استقل به لم يطق
رأى لجة ظنها موجة فلما تمكن منها غرق
تمنى الإقالة من ذنبه فلم يستطعها ولم يستطق[1]

الصبر على فتنة القصور أعظم أجرًا من الصبر على مصائب الدهور:

وفي بيان عظمة البيانات اليوسفية أمام كل الشهوات المالية والجسدية والعقلية يصور ابن الجوزي ذلك الجمال الذي كسا كلام الكبير المتعال في قصة يوسف –عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام– كما في صيد الخاطر: "نازعتني نفسي إلى أمرٍ مكروه في الشرع، وجعلت تنصب لي التأويلات، وتدفع الكراهة، وكانت تأويلاتها فاسدة، والحجة ظاهرة على الكراهة.

1- روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص 147) .

فلجأت إلى الله تعالى في دفع ذلك عن قلبي، وأقبلت على القراءة، وكان درسي قد بلغ سورة يوسف، فاتحتَها، وذلك الخاطر قد شغل قلبي، حتى لا أدري ما أقرأ، فلما بلغت إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ (يوسف: 23) ، انتبهت لها، وكأني خوطبت بها، فأفقت من تلك السكرة، فقلت: يا نفسُ! أفهمتِ؟ هذا حُرٌّ بيعَ ظلمًا، فراعى حقَّ من أحسن إليه، وسماه مالكًا، وإن لم يكن له عليه ملك، فقال: {إِنَّهُۥ رَبِّىٓ}، ثم زاد في بيان موجب كفِّ كفه عما يؤذيه، فقال: ﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾، فكيف بك، وأنت عبدٌ على الحقيقة لمولىً ما زال يحسن إليك من ساعة وجودك، وإنَّ سترَه عليك الزلل أكثر من عدد الحصى؟!

أفما تذكرين -يا نفس- كيف ربَّاكِ، وعلمكِ، ورزقكِ، ودافع عنكِ، وساق الخير إليكِ، وهداك أقوم طريق، ونجاك من كل كيد، وضم إلى حسن الصورة الظاهرة جودة الذهن الباطن، وسهل لك مدارك العلوم، حتى نلت في قصير الزمان رزقك بلا كلفة تكلف، ولا كدر مَنٍّ، رغدًا غير نزرٍ؟!

فوالله، ما أدري أي نعمةٍ عليكِ أشرح لك، حسن الصورة، وصحة الآلات؟ أم سلامة المزاج، واعتدال التركيب؟ أم لطف الطبع الخالي عن خساسة؟ أم إلهام الرشاد منذ الصغر؟ أم الحفظ بحسن الوقاية عن الفواحش والزلل؟ أم تحبيب طريق النقل، واتباع الأثر، من غير جمود على تقليد لمعظم، ولا انخراط في سلك مبتدع؟ ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ (ابراهيم: 34) .

كم كايدٍ نصبَ لكِ المكايدَ فوقاكِ؟ كم عدو حط منك بالذم فرَقَّاك؟ كم أعطش من شراب الأماني خلقًا وسقاكِ؟ كم أمات من لم يبلغ بعض مرادك وأبقاك؟ فأنت تصبحين وتمسين سليمة البدن، محروسة الدين، في تزيد من العلم، وبلوغ الأمل، فإن منعت مرادًا، فرزقت الصبر عنه بعد أن تبين لك وجه الحكمة في المنع، فسلمي حتى يقع اليقين بأن المنع أصلح.

ولو ذهبت أعد من هذه النعم ما سنح ذكره، امتلأت الطروس ولم تنقطع الكتابة، وأنت تعلمين أن ما لم أذكره أكثر، وأن ما أومأت إلى ذكره لم يشرح، فكيف يحسن بك التعرض لما يكرهه؟! ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (يوسف)" [1].

إنه الشابُّ الكريم ابن الكرام يوسف -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام-: لقد آثر مشقّة الامتناع على لذّة الانتفاع، وقدم جمال الطاعة، وما يجده في الطاعة من الاستمتاع على قليل الشهوة والمتاع.

1- صيد الخاطر (ص: 215)

المشهد الثامن

﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ انظر إلى لطف الله وحبّه ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ (يوسف: 24) أغلال الهوى، وسجون الغوى، ودروع التقى

بدلًا من أن يُدهِشَ امرأةَ العزيز تَمَسُّكُ الشابُّ بدينه، واعتصامُهُ بربه، وتعفُّفُهُ العجيب الرائع، وفرارُه من ذنبه..

بدلًا أن يُؤَثِّرَ عليها سمتُه الطيبُ الأنفاس، وطهرُه النقيُّ الخالصُ المُمَيَّزَ بين كثيرٍ من الناس..

بدلًا من أن يُوقِظَها عزمُه الصلب الشديد.. أمام إغرائها السافر المَريد..
بدلًا من أن يَبهرَها نقاءُ جوهره الذي يزيد من جمال مظهره..بدلًا من أن يهزها طهر قلبه الراشد الرشيد أمام اندفاعها الملوث العنيد.. بدلًا من ذلك كله:

أصرت على المضي في دنسها، فقد حصرت كلَّ وعيها –إن صح أن يسمى ذلك وعيًا– في أمرٍ واحدٍ كأن أبواب التفكير عندها مغلقةٌ عليه.. هي ثائرةٌ ثورةً لن تهدأ في ظنّها التخيلي إلا عندما تقضي وطرَها، وتُكمِلُ مشوارَها.. أجل! إنها سكرة الهوى ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ (الحجر). كذلك حال من أتبعه الشيطان فكان من الغاوين.. يسارعون إلى ذلك الدنس.. إنهم كانوا قومًا عمين.

وهنا يُصَوِّرُ القرآنُ الكريم تصويرًا مذهلًا مقدارَ جنونِها البهيمي، ويكشف خطوتَها التاليةَ لكلامها، فيقول الله تعالى بالتعبير المعجز: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ (يوسف: 24) كأنما يُومِئُ بهذه العبارةِ إلى أنها ألقت بنفسها عليه، ورمت بجسدها إليه، أو ربما حاولت فظنت أن الاحتكاك الجسدي قد يَفِلُّ عزم الطهرِ الحديدي.. إنها وسيلتها الأخيرة لزعزعة النقاء الكريم.. تظن أنَّ مسَّ الجلدِ الجلدَ سيشعل النار في الهشيم!

عجيبةٌ طبيعة النساء الغاويات حينما يتحكم الشيطان في رفع الراية فوق عقولهن؛ فإن شأن المرأة –كما يقول رشيد رضا– أن تكون مطلوبةً لا طالبةً، وَمُرَاوَدَةً عَنْ نَفْسِهَا لَا مُرَاوِدَةً، حَتَّى إِنَّ حُمَاةَ الْأُنُوفِ مِنْ كُبَرَاءِ الرِّجَالِ؛ لَيُطَأْطِئُونَ الرُّءُوسَ لِلفَقِيرَاتِ الْحِسَانِ رَبَّاتِ الْجَمَالِ، وَيَبْذُلُونَ لَهُنَ مَا يَعْتَزُّونَ بِهِ مِنَ الْجَاهِ وَالْمَالِ، بَلْ إِنَّ الْمُلُوكَ لِيُذِلُّونَ أَنْفُسَهُمْ لِمَمْلُوكَاتِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَلَا يَأْبَوْنَ أَنْ يُسَمُّوا أَنْفُسَهُمْ عَبِيدًا لَهُنَّ، كَمَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِ مُلُوكِ الْأَنْدَلُسِ:

نَحْنُ قَوْمٌ تُذِيبُنَا الْأَعْيُنُ النُّجْـ ـلُ عَلَى أَنَّنَا نُذِيبُ الْحَدِيدَا
فَتَرَانَا لَدَى الْكَرِيهَةِ أَحْرَا رًا، وَفِي السِّلْمِ لِلْمِلَاحِ عَبِيدًا

إلا أن امرأة العزيز –شأنَ من يسيرُ سيرَها من النساء– قد زَيَّنَ لها هواها قضاءَ وطرها مهما تمنع الشابُّ أمامها، بل إنها –يا لَلعمى– تزداد عليه إقبالًا كلما ازداد منها إدبارًا، فسباها فِي حُسْنِهِ وَجَمَالِهِ، وَفِي جَلَالِهِ وَكَمَالِهِ، وَفِي إِبَائِهِ وَتَأَلُّهِهِ، وفي صلاحه وتنسكه، وأَخْرَجَ ذلك الْمَرْأَةَ مِنْ طَبْعِ أُنُوثَتِهَا فِي تمنعها وإِدْلَالِهَا لتشهد أمام رغبتها على هبوطها وإذلالها.. أنزلت نفسها في سبيل ذلك من مقام السَّيِّدَةِ الْمَالِكَةِ بعِزَّةِ سِيَادَتِهَا وَسُلْطَانِهَا، وَدَهْوَرَت الْأَمِيرَةَ العالية مرتبتُها مِنْ عَرْشِ عَظَمَتِهَا وَتَكَبُّرِهَا، فلما صارحته بِالدَّعْوَةِ إِلَى نَفْسِهَا ازْدَادُ عُتُوًّا وإباءً.. يا لَقوته لقد ارتفع عَلَيْهَا بِالدِّيَانَةِ وَالْأَمَانَةِ، وتنزه عَن دنس الْخِيَانَةِ.

ولكن العاشقة جاءت في قضيتها ببرهان الشيطان تقذف به كآخر محاولةٍ لها وأقواها فهي ما زالت به ولهانة، فهمَّت به، وتراها من شدة مقاومته ومجاهدته مذهولة حيرانة، فأرادت أخيرًا أن تُجرِّبَ هذا السلاح الفتَّاك الذي يُذيق الشباب مُرَّ الشِّباك.. إنه الاختلاط التام للنساء بالرجال، لا ترى عند عُبَّادِ الشهوات التزامًا بضوابط الشريعة التي تبني للمجتمع كيانه، وتحمي له بنيانه، ويتكرر المشهد في هذا الزمان، حيث يأتي الذين يتبعون خطوات الشيطان طالبين شرعنة اللقاء المنفلت للرجال بالنساء، بل يبحثون عن الفتاوى المبيحة للإفساد والإغواء والإغراء:

يا كتاب الزمان كم صفحاتٍ فيك صارت على المدى ملآنه
لو منحنا نفوسنا مبتغاها لغدت أرضنا الفسيحة حانه
كم عيون تنام من راحة البال وأخرى من شغله سهرانه
عصرنا يا أُخَي بحرٌ عميقٌ قد عرفنا على المدى جيشانه
وبلونا شطآننا وقرأنا في سجلات عزمنا عنفوانه

فماذا كان ردُّ يوسف –عليه السلام– أمام إغواء الشيطان وهو المملوء بالصدق والألق والرزانة؟

﴿وَهَمّ بِهَا﴾ الطبيعة البشرية الضعيفة ترفعها نجوم الإخبات المنيفة:

انظر إلى هذا الشابُّ الصادق.. تأمل فيما يخبئه جسده الناضر وقلبه الصابر من مجدٍ باسق؛ فإن الله قد ذكر بشرية يوسف ليقتدي به الشباب، ولتكون قصته لهم حادية إلى المتاب ، فـ "يوسف.. العبد الصالح –الإنسان– لم يزوّر الأداء القرآني في شخصيته الإنسانية لمحةً واحدةً وهو يواجه الفتنة بكل بشريته –مع نشأته في بيت النبوة وتربيته ودينه–.

وبشريتُه مع نشأته وتربيته ودينه تمثل بمجموعها واقعيتَه بكل جوانبها.." فبعض أهل العلم يرى أن قد ضعف حين همت به حتى هم بها لولا أن تداركه نعمةٌ من ربه، **فأدركه اللطف الإلهي**، وأنقذه من هاوية السقوط في شباك دنس الآثام.

يرى بعض أهل العلم أن إعجازًا قرآنيًّا ظاهرًا في هذه الجملة المباركة (وَهَمّ بِهَا).. إذ يصور القرآن هذا الشابُّ وقد تلبسه الضعف البشري إزاء كيد النسوة.. تسرب إليه الضعف البشري مع المنطق الذي يحيط به في تلك البيئة.. تسرب إليه الضعف البشري مع الثقافة الرديئة التي تسود جو قصور المجتمع المترف الذي لا هم له إلا مغامرات اللذة والشهوة، ولا هم لمجتمعه إلا ما تلوكه نساء القصور من مغامرات الشهوات ووحول المستنقعات! **فهمَّ بها**..

إلا أن نعمة من ربه جعلته متشبثًا بالعروة الوثقى.. ليست هنالك لمحةٌ واحدةٌ مزوّرةٌ في واقعية هذه الشخصية الشابة وطبيعيتها، وليس هنالك رائحة من مستنقعات الجاهلية ووحلها الفني[1].

﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ نعم! انظر إلى ذلك الشابُّ البهي الطلعة الذي بلغ أشُدَّه جسمًا وعقلًا.. هذه المرأة (هَمَّتْ بِهِ) ولكنه همُّ عزمٍ مصممٍ.. إنها إرادةٌ فاجرةٌ مخططة، وفي مقابل ذلك {هَمَّ بِهَا} ولكنه همَّ بها همَّ خطرةٍ ومنازعة فكرة، ولا صنع للعبد فيما يخطر بالقلب ولا مؤاخذة عليه[2].. إنه همُّ الطباع مع أقوى الامتناع عن الحرام من الاستمتاع..

نعم (وَهَمَّ بِهَا) ولكنه مجرد (هَمَّ) عرض، وطيفٍ طالما راود المتقين وما زال، لكنهم جعلوه كالمرض.. مرَّ عليه سريعًا كطيف عَرَض..﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ (الأعراف)، أزالوه فإذا هُمْ أمامَه في بهاء الصفاء وجمال الثبات كشم الجبال.. كيف لا !! وهم يراقبون الكبير المتعال، فقد تدربوا على خصال التقوى فهم بها مستمسكون..

فلولا برهان ربه لانهدت مقاومته الزاهية للإغراء، واستسلم لما تذوب أمامه قوةُ العظماء..

﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ إنها النعمُ المنقذة تراها في لطف الله وحبّه

هذه هي النهاية الفاصلة لموقفٍ طويلٍ من الإغراء والإغواء ومحاولةٍ لإضعاف عزيمة يوسف الشماء، فبعدما أبى يوسف في أول الأمر واستعصم، قامت المرأة فهمَّت به، فذكر الله تعالى حاله فقال: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾، وهذه الجملة تصور تصويرًا واقعيًّا صادقًا لحالة النفس البشرية الصالحة في المقاومة والضعف ثم الاعتصام بالله في النهاية والنجاة.. ولكن السياق

1- في ظلال القرآن 4/ 1954.
2- تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل (2/ 103) .

القرآني لم يُفَصِّل تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبة؛ لأن المنهج القرآني لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضًا للإثارة يستغرق أكثر من مساحته المناسبة في محيط قصة الحياة، فذكر طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله والاعتصام في نهايته، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف المبهر جميعًا.

هذا ما يخطر عند مواجهة النصوص، وتصور الظروف، وهو أقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبوية، وما كان يوسف إلا بشرًا، نعم إنه بشر مختار، ومن ثم لم يتجاوز همه الميل النفسي في لحظةٍ من اللحظات، فلما أن رأى برهان ربه الذي نبض في ضميره وقلبه، بعد لحظة الضعف الطارئة، عاد إلى الاعتصام والتأبي[1]، وإلى الرفعة والسمو، وإلى البحث السريع عن مخرجٍ يحميه من أدناس الإثم.

ولكن ما هو الهم الذي طرأ على يوسف؟

الْهَمُّ اسْمُ جِنْسٍ تَحْتَهُ " نَوْعَانِ " كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: "الْهَمُّ هَمَّانِ: هَمُّ خَطَرَاتٍ، وَهَمُّ إصْرَارٍ"، والذي حدث ليوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام هو هم الخطرات، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَنَّ الْعَبْدَ إذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ، وَإِذَا تَرَكَهَا لِلَّهِ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَ لَهُ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ». وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتْرُكَهَا لِلَّهِ لَمْ تَكْتُبْ لَهُ حَسَنَةٌ وَلَا تُكْتَبُ عَلَيْهِ سَيِّئَةٌ، وَيُوسُفُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَمَّ هَمًّا تَرَكَهُ لِلَّهِ، وَلِذَلِكَ صَرَفَ اللَّهُ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ لِإِخْلَاصِهِ، وَذَلِكَ إنَّمَا يَكُونُ إذَا قَامَ الْمُقْتَضِي لِلذَّنْبِ وَهُوَ الْهَمُّ، وَعَارَضَهُ الْإِخْلَاصُ الْمُوجِبُ لِانْصِرَافِ الْقَلْبِ عَنْ الذَّنْبِ لِلَّهِ.

فيُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُ إلَّا حَسَنَةٌ يُثَابُ عَلَيْهَا، وَقد قَالَ تعَالَى عن مثله: {إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾} (الأعراف)

1- في ظلال القرآن (4/ 1981) .

وَأَمَّا مَا يُنْقَلُ مِنْ أَنَّهُ همَّ بما هو أكثر من ذلك فلا يوجد في النقل الصحيح ما يؤيده، ولا يوجد في الفهم الواضح الصريح لهذه الآيات ما يساعده[1].

إنها قصة صمود يوسف وطهره وصدقه مع أرحم الراحمين.. وهي قصة الذين بهداهم نقتدي.. وبما أنار الله به حياتهم نروح ونغتدي:

يـا ليلـة منهـم على الكثيـب ... طـابـت بلا واشٍ ولا رقيـب
نالـوا المنى في حضـرة الحبيـب ... مـن نظـرة التقريب والإيصال
شفـــا لكـــل علـــةٍ وإثـــم ... مـن كَـرَم الكريـم لا من كَـرْم
بل من هدى وحكمة وعلـم ... تزيـل كل الشـك والإشكـال
بهـا حيـاة الـروح والجنـــان ... بهـا تـذاق صفـوة الإيمـان
فيعـرف المنقـول كـالعيـــان ... ويُشهـد التفصيـل في الإجمال
تفتـح عيـن القلـب باليقيـن ... وتشـرح الصـدر بمعنى الديـن
فيستقـر العبـد فـي التمكيـن ... ولا يـزال الجـد فـي إقبـال
يخلـص منهـا الجوهـر الإنسانـي ... مـن ظلمـات الطبع والأكـوان
وشـر كيـد النفـس والشيطـان ... وظلمـة الأوهـام والخيـال
يـذوق فيهـا لـذة الفتـوة ... من ثُمْـر غـرس الوحـي والنبوة
يصيـر مـرآة هـدى مجلـوة ... يـرى مـا جـل عـن مقـال

1- الفتاوى الكبرى لابن تيمية (5/ 261) .

المشهد التاسع

العطايا والحماية والنعماء في ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ (يوسف)

﴿ لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ (يوسف: 24):

هم امرأة العزيز يلخص قصة الذين يتبعون الشهوات، الذين يبحثون بإلحاح كيف يقتفون أثر الشيطان في كل الخطوات.. وهذه القصة تتكرر.. إنها قصة الآلام لأهل الصفاء والسلام.. وقصة الإغواء والتزيين والإغراء من قبل أتباع الشر والظلام.. وهي مع ذلك قصة التحدي الحقيقي العظيم للشاب المؤمن المخبت الكريم:

فهذه امْرَأَةٌ فَائِقَة الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ والقوة في المنصب الاجتماعي تَزَيَّنَتْ وَتَهَيَّأَتْ للشَّابِّ الْقَوِيِّ الغريب غير المتهم، فهو أمام الناس كالابن للأسرة التي هو في بيت سيدتها، فوقع من ذلك ما حكاه صاحب الكشاف أنه –عليه الصلاة والسلام وعلى نبينا وأنبياء الله أجمعين– مالت نفسه إلى المخالطة، ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرَمِه ميلًا يشبه الهم به والقصد إليه، كما تقتضيه صورة تلك الحال حيث الخاطر الحائم، وحيث تكاد تُذهِبُ إغواءات هذه المرأة بالعقول والعزائم، فبين الله ذلك قائلًا: ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾.

هذه الجملة المباركة من الآية من أعظم براهين الإعجاز البياني والتربوي، فهي تتضمن ردًّا على من يقول من الشباب: يوسف نزع الله عنه الشهوة فلا يشعر بما نشعر به من الشبق وغلبة العشق، فبين الله تعالى أن به ما بهم إن لم يكن أكمل وأشد، ولكنه كسره ببرهان ربه الذي أشرق في قلبه، فالمراد بهمه عليه السلام ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا

القصد الاختياري، والخطرة الطارئة مما لا يدخل تحت التكليف، بل يظفر من يعتريه بالمدح والأجر الجزيل من الله إذا كف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم، وحارب الصور التي تخطر في القلب، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همًّا لشدّته لما كان صاحبه ممدوحًا عند الله بالامتناع؛ لأن استعظام الصبر على الابتلاء، على حسب عظم الابتلاء وشدته، ولو كان همه كهمها عن عزيمة، لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين[1]

وفي ذلك المشهد تقع التجاذبات والمنازعات بَيْنَ الْحِكْمَةِ وَالشَّهْوَةِ الطَّبِيعِيَّةِ.. هاهنا تقع المنازعةُ بَيْنَ النَّفْسِ وَالْعَقْلِ، وبين جنود إبليس من الأفكار، وتذكر عظمة الجليل الكريم الغفار، فمن الذي سيغلب منهما؟ ربما تَقْوَى دَاعِيَةُ الطَّبِيعَةِ وَالشَّهْوَةِ، وربما تعظم دَاعِيَةُ الْعَقْلِ وَالْحِكْمَةِ، فَالْهَمُّ عِبَارَةٌ عَنْ جَوَاذِبِ الطَّبِيعَةِ، وَرُؤْيَةُ الْبُرْهَانِ عِبَارَةٌ عَنْ جَوَاذِبِ الْعُبُودِيَّةِ، والْمُرَادُ بِرُؤْيَةِ الْبُرْهَانِ هُوَ حُصُولُ النور الذي يشع في القلب ويهز الصدر، فيترتب عليه التذكر الزاجر، والإقلاع الرادع عَنِ الْإِقْدَامِ عَلَى الْمُنْكَرَاتِ عند الشعور بخشية الله القاهر.

وفي مثل هذه الأحوال توجد مَرْتَبَتَانِ للمتقين –كما يقول رشيد رضا–:

إِحْدَاهُمَا: الْكَفُّ عَنِ الْمَعْصِيَةِ جِهَادًا لِلنَّفْسِ وَكَبْحًا لَهَا خَوْفًا مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَهِيَ مَرْتَبَةُ الصَّالِحِينَ الْأَبْرَارِ.

والمرتبة الثانية: مَرْتَبَةُ الْكَرَاهَةِ لَهَا، وَالِاشْمِئْزَازِ مِنْهَا حَيَاءً مِنَ اللهِ، وَمُرَاقَبَةً لَهُ، وَاسْتِغْرَاقًا فِي شُهُودِهِ، وَهِيَ مَرْتَبَةُ الصِّدِّيقِينَ وَالنَّبِيِّينَ الْأَخْيَارِ، الَّذِينَ إِذَا عَرَضَتْ لَهُمُ الشَّهْوَةُ الْمُسْتَلَذَّةُ بِالطَّبْعِ، بِالصُّورَةِ الْمُحَرَّمَةِ فِي الشَّرْعِ، عَارَضَهَا مِنْ وِجْدَانِ الْإِيمَانِ، وَتَجَلِّي برهان الرَّحْمَنِ، مَا تَغْلِبُ بِهِ رُوحَانِيَّتُهُمُ الْمَلَكِيَّةُ عَلَى طَبِيعَتِهِمُ الْحَيَوَانِيَّةِ، وَهَذَا مِمَّا قَدْ يَحْصُلُ لِمَنْ دُونَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَرَوْنَ بُرْهَانَ رَبِّهِمْ بِأَعْيُنِ قُلُوبِهِمْ، وَيَنْعَكِسُ نُورُهُ عَنْ بَصَائِرِهِمْ فَيَلُوحُ لِأَبْصَارِهِمْ؟

1- انظر: الكشاف 2 /429، تفسير البيضاوي (3/ 160) .

وبعضهم هنا **يَفْقِدُ الشَّهْوَةَ الطَّبِيعِيَّةَ فِي هَذِهِ الْحَالِ، أَوْ يَفْقِدُ الشُّعُورَ بِالْقُدْرَةِ** عَلَى وَضْعِهَا فِي الْمَوْضِعِ الْمُحَرَّمِ مَعَ وُجُودِهَا عَلَى أَشَدِّهَا، وَلَا عَجَبَ.

وبعضهم لا يفقد شيئًا من ذلك إلا أنه يأتيه من النور والبرهان، ومن خوف الرحمن ما يجعله يتصور من السعير، ويخاف من غضب الجليل الكبير ما يصيبه خجلًا وخوفًا، فَقُوَى النَّفْسِ وَانْفِعَالَاتُهَا الْوِجْدَانِيَّةُ تَتَنَازَعُ فَيَغْلِبُ أَقْوَاهَا أَضْعَفَهَا، لذا قال المبصرون للحقائق:

ففي قمع أهواء النفوس اعتزازها وفـي نيلها ما تشتهي ذلُّ سرمدِ
فلا تشتغل إلا بمـا يكسب العلا ولا ترضَ للنفس النفيسة بالرَّدِي

وقال أبو بكر الصديق في وصيته لعمر رضي الله عنهما حين استخلفه : إنَّ أوَّل ما أحذِّرُكَ نفسك التي بين جنبيك[1] .

وتتعجب أن يقوم بعض من لا دين له بضبط نفسه وأهوائه ونوازعه قيامًا ببرنامج دنيوي أو رياضي، ويتغافل الشابُّ المسلم عن هذه المجاهدة والمكابدة، حَتَّى إِنَّ مِنَ الْإِبَاحِيِّينَ وَالْإِبَاحِيَّاتِ مِنْ أَهْلِ الْحُرِّيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ مَنْ يَمْلِكُ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْخَلْوَةِ مَنْعَ نَفْسِهِ أَنْ يُبِيحَهَا لِمَنْ يُرَاوِدُهُ عَنْهَا، لَا خَوْفًا مِنَ اللهِ، وَلَا حَيَاءً مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُؤْمِنٍ بِهِ أَوْ بِعِقَابِهِ، بَلْ وَفَاءً لِزَوْجٍ أَوْ عَشِيقٍ عَاهَدَهُ عَلَى الِاخْتِصَاصِ بِهِ فَصَدَقَهُ.

فالبرهان المرسل من الرحمن الذي ذكر الله تعالى أن هذا الشابُّ رآه هو "فضلٌ إلهي يقوى به الإنسان على تحري الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع له من باطنه، وإن لم يكن منعًا محسوسًا"[2]، وهو النور الذي أزال الظلمة أن تحيط بهذا الشابُّ أن يتملكه الهوى أو الغرور كما قال ابن عطاء: "إذا أراد الله أن ينصر عبده أمده بجنود الأنوار، وقطع عنه مدد الظُلَم والأغيار".. أجل! أجل!

1- جامع العلوم والحكم 2 /23.
2- الذريعة الى مكارم الشريعة (ص: 120) .

هـذي بساتيـن الجنـان تزينـت | للخاطبيـن فأيـن مـن يرتـاد ؟
دَعْنا نسافرُ في دُروبِ إبائِنـا | ولنـا مِـن الهمِ العظيمةِ زادُ
ميعادُنا النصرُ المبينُ فإنْ يكـنْ | مـوتٌ فعِنـدَ إلهِنا الميعـادُ[1]

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ (يوسف)

وفي هذه التتمة المعجزة الرائعة للآية نسمع شهادة الله تَعَالَى عَلَى عظمة يوسف عليه السلام وطَهَارَتِهِ ونقائه خمس مَرَّاتٍ وليس مرةً واحدةً:

فالمرة الأولى التي شهدت ليوسف في الآية هي قَوْلُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ﴾، وَاللَّامُ لِلتَّأْكِيدِ وَالْمُبَالَغَةِ، أي رأى برهان ربه.. فكذلك نصرف عنه السوء فلا يمسه أو يتطرق إليه فضلًا عن أن يستحوذ عليه.

وَالمرة الثَّانِية: ذكرها الله في قَوْله ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾، فذكر الله أنه صرف عنه أمرين: السوء والفحشاء، والْفَرْقُ بَيْنَهما أَنَّ السُّوءَ جِنَايَةُ الْيَدِ ومقدمات الفاحشة من القُبلة ونحوها، أما الْفَحْشَاءُ فيراد بها الزِّنى، وهذا يدل على أن الكريم ابن الأكارم يوسف -عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- لم يبلغ به الهمُّ حدًّا يجعله يمد يده لها -على قول من جعل الهم استجابةً منه لإغوائها أول الأمر-.

وهناك نوعٌ آخر في الفرق بين السوء والفحشاء قد صُرِف عن يوسف -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام-: فالسُّوءُ: الْقَبِيحُ، ومن القبيح أن يخون مَنِ ائْتَمَنَهُ. وَالْفَحْشَاءُ: المعصية التي يفحش فعلها كالزنى.

وتأمل جمال التعبير في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾ فقد بلغ برهان ربه درجة عظيمةً في السطوع حتى صَرَفَ الله عنه السُّوء وَالْفَحْشَاء، وَلَمْ يَقُلْ: لِنَصْرِفَهُ

1- لحادي القلوب المؤمنة زمن الغربة الداكنة عبد الرحمن العشماوي.

عَنِ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ، فكأن السوء والفحشاء هما اللذان يلاحقانه، والله تعالى يصرفهما ليُظْهِرَ بذلك مدى الضياء الذي يجلل هذا الشاب.. فيا للبهاء والصفاء، (وَمَنْ ذَاقَ عَرَفَ، وَمَنْ حُرِمَ انْحَرَفَ).. إنه برهان ربه الذي أشرق في حنايا قلبه، فأمده بأقوى إرادة، وأعظم قوة توصله إلى السعادة، وقُوَّة الْإِرَادَةِ من أعظم المزايا البشرية، والذي تسلب إرادته يصبح عبدًا رقيقًا في يد من يطلبه، وَلِذَلِكَ كَانَتِ الْمُرَاوَدَةُ احْتِيَالًا لِتَحْوِيلِ الْإِرَادَةِ، وَجَعْلِهَا خَاضِعَةً لِلْمُرَاوِدِ، وَإِنَّمَا يَظْفَرُ فِيهَا مَنْ كَانَتْ إِرَادَتُهُ أَقْوَى، ومن قاوم نفسه هواها رأى برهان ربه أحوج ما يكون له ليحول بينه وبين ذنبه، **وقد أحسن ابن رسلان الشافعي يوم قال:**

عليكَ بقمعِ النَّفسَ عَن كلِّ شهوةٍ تُعوَض بنورٍ في فؤادكَ بارقِ
فَإنْ لَم تجدْ نورًا لِمُ النَّفسَ واعلمن بأنَّكَ في دعواكَ لستَ بصَادقِ

وَالمرة الثالثة التي شهدت ليوسف عليه السلام نجدها في قوْله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا﴾ فأضافه إليه للتشريف كقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ (الْفُرْقَانِ).

وَالمرة الرابعة نجدها في قوْله تعالى ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ على قراءة كسر اللام، فهذه الكلمة اسْمُ فَاعِلٍ من أخلص، وهي تدل عَلَى كَوْنِهِ آتِيًا بِالطَّاعَاتِ وَالْقُرُبَاتِ مَعَ صِفَةِ الْإِخْلَاصِ، وبذلك أشرق قلب يوسف واستنار وارتقى إلى درجات المصطفين الأخيار.. فكيف يريد أحدٌ مثل ذلك وهو في وحل الخطيئة يقارف الأوزار، ويغشى إشراق قلبه خطايا الأكدار، كذلك قال الصالحون من قبل: "كيف يُشرقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأكوانِ مُنْطَبِعَةٌ في مرآته ؟ أمْ كيف يرحلُ إلى الله وهو مكَبَّلٌ بشَهواته ؟ أم كيف يطمع أن يكون مع الله وهو لم يتطهَّر من جَنَابَةِ غَفَلاتِهِ ؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائقَ الأسرارِ وهو لم يتُبْ من هَفَواتِهِ؟"[1].

وأما المرة الخامسة التي شهد الله فيها بطهارة يوسف عليه الصلاة والسلام فنجدها في قوله تعالى: {ٱلْمُخْلَصِينَ}، وهي القراءة الثانية بفتح اللام على أنه اسْم الْمَفْعُولِ، وهذه

1- الحكم العطائية.

القراءة ترسم لنا صورة ثانية لهذا الشابُّ الفتي، وهذه القراءة تأتي نتيجة لفحوى القراءة السابقة، فلما تقرب إلى الله بالإخلاص، والبحث عن الأرضى له، رفعه الله مكانًا عليًّا، وكان به حفيًّا، فجعله من الذين اصطفاهم من البشر بالصلاح، وتزيد هذه القراءة معنى آخر يكون لمن يشاء الله من عباده، حيث تدُلُّ هذه القراءة عَلَى أَنَّ اللَّه تعَالَى اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِهِ، وَاصْطَفَاهُ من بين خلقه، وهو بذلك يسير على الطريق المضيء الذي سار عليه آباؤه المخلصون من قبل الَّذِينَ أَخْلَصَهُمْ رَبُّهُمْ وَصَفَّاهُمْ مِنَ الشَّوَائِبِ حيث وصفهم الله بقوله : ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾(ص)، ويُوسُف هُوَ الْحَلْقَةُ الرَّابِعَةُ في سِلْسِلَتِهِمُ الذَّهَبِيَّةِ.

وَالْقِرَاءَتَانِ توضحان صفتين متلازمتين لهذا الصنف من عباد الله السابقين: فَهُمْ مُخْلِصُونَ لِلَّهِ فِي إِيمَانِهِمْ بِهِ وَحُبِّهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ لَهُ، وَهم بذلك مُخْلَصُونَ عِنْدَهُ بِالْوِلَايَةِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْعِنَايَةِ وَالْوِقَايَةِ مِنْ كُلِّ مَا يُبْعِدُهُمْ عَنْهُ وَيُسْخِطُهُ عَلَيْهِمْ.

وقد بين إبليس كما حكى الله تعالى عنه صعوبة إغوائه للمخلصين، وهذه الصعوبة تصل حد عدم القدرة كما قال تعالى:﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (ص).

كما قيل:

أَتَتْ فتًى خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ... مَا زَالَ يَنْهَى نَفْسَهُ عَنِ الْهَوَى

لَمْ يَقْتَرِفْ فَاحِشَةً قَطُّ وَلَمْ ... يعزم وَلَا أدنى لها وَلَا غوَى

بِغِرَّةٍ مِنْهَا وَصَفْوِ نِيَّةٍ ... فِي مَعْزِلٍ تُشْهِدِهِ أَقْصَى مَا اشْتَهَى

مِمَّا يُمَنِّيهِ بِهِ شَيْطَانُهُ ... مِنْ حَيْثُ لَا يَطْمَعُ مِنْهُ فِي خَنَا

لَكِنَّهُ اسْتَعْصَمَ رَاوِياً لَهَا ... مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَمَا نَهَى

المشهد العاشر

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾.. إنه مشهد الاستباق إلى الله العظيم الخلاق.. إنها الخُطا المسرعة إلى النجاح والإشراق

بعد هذا الموقف المتحرك العاصف بين يوسف عليه السلام وبين امرأة العزيز حيث تراها تراوده بالفعل، وتغريه بالقول، وتغويه بالتجمل والحركات وإظهار الأمان بإغلاق البوابات، **إلا أن يوسف عليه السلام يزداد اعتصامًا بالمولى –جل جلاله– ويلوذ بأسوار الخشية التي تدلت لتكون درعًا منيعًا وحصنًا رفيعًا وملاذًا آمنًا للنجاة من إغرائها والفرار من إغوائها**، ثم يحدث أمرٌ عجيب؛ إذ يقول الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ (يوسف: 25)، وهذه الجملة العظيمة ترسم لنا قاعدتين من القواعد التربوية، وتؤسس لأسلوبين من الأسس التزكوية الرائعة التي تطبع الشخصية السوية على كيفية النجاة في المواقف الآثمة:

أما القاعدة الأولى: فالاستباق يدل على أن مفارقة مكان المعصية أعظم عونٍ على العصمة منها؛ فإن يوسف عليه السلام لم يزعم أنه قد وثق بنفسه.. يوسف لم يصبه العجب والاختيال.. لم يصبه الغرور والادعاء الفارغ.. لم يقل: لا يمكن أن أسقط في مصيدة الشيطان.. لم يدَّعِ أنه لا يمكن أن يقع في تزيين النفس وصحبة السوء للشهوات المحرمة والعصيان، لم يزعم أنه صامدٌ أمام كل إغواء تقوم به فتيات الهوى، وصور الغوى المتلاعبة بحبائل الشيطان.. بل فارق المكان.. لا! لم يفارق فقط، بل استبق –عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام– هو وامرأة العزيز الباب، هي تجري مسرعةً في سبيل الهوى والشيطان، وهو يفر مسرعًا في سبيل النقاء البشري وطاعة الله الملك الرحمن..

هي تسرع وتسابقه للطلب، وهو يسرع ويسابقها للهرب.. وانظر إلى الصورة المتحركة التي ترسمها الآية؛ إذ استبقا الباب، هذا ليهرب، وهذه لأجل ألا تفوتها الفعلة التي كانت

تطلب[1]..

فهما اشتركا في الاستباق، لكنهما اختلفا في القصد من هذا الاستباق، أما يوسف فكان استباقه فرارًا من ركوب الفاحشة لما رأى برهان ربه فزجره عنها، وأما المرأة فكان استباقها إصرارًا على إتمام هدفها وقضاء حاجتها التي راودته عليها، ولأنها في سكرتها فلا هم لها إلا منعه من الخروج حتى يتم لها المراد، ولو كان المراد أسوأ الاحتمالات، وكما تقول العرب: دون ذلك خرط القتاد، والمسابقة والاستباق يقتضيان أن يَتَكَلَّفَ كُلٌّ من المتسابقَين أَنْ يَسْبِقَ غَيرُهُ، فهي مُشَارَكَةٌ يُقْصَدُ بِهَا الْغَلَبُ، وَقَدْ يُقْصَدُ الاستباق لِذَاتِهِ، وقد يقصد لِغَرَضٍ آخَرَ في السَّبْقِ، ويلحظ المرء بلاغة القرآن في قوله: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ (يوسف: 25)، فلم يقل الله تعالى: وَاسْتَبَقَا إلى الْبَاب، بل عدَّى الفعل بنفسه دون حرف جرٍّ ليضمنه معنى الابتدار، أي: سابقها وسابقته إلى الباب ليبتدره كل واحدٍ منهما، فكان الباب هدفًا لكلٍّ منهما، وحذف (إلى) أيضًا دليلًا على أن كلًّا منهما بذل أقصى جهده في السبقِ.

ويوسف كان يَقْصِدُ بالاستباق الْخُرُوجَ مِنَ الدَّارِ هَرَبًا، وتبعته امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تَبْغِي إِرْجَاعَهُ حَتَّى لَا يُفْلِتَ مِنْ يَدِهَا، وَهِيَ لَا تَدْرِي أَيْنَ يَذْهَبُ إِذَا هُوَ خَرَجَ وَلَا مَا يَقُولُ وَمَا يَفْعَلُ، وَتَكَلَّفَ كُلٌّ مِنْهُمَا أَنْ يَسْبِقَ الْآخَرَ، فأدركته فتعلقت بقميصه، وجذبته بقوة من ورائه، ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ إِذْ كانت جذبتها قويةً لأنها تريد منعه من الخروج من الباب، فقدَّته من دبر أي شقته من خلفٍ لا من قدام، فَانْقَدَّ لأن يوسف كان هو الهارب، وكانت هي الطالبة.

أما هو –عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام– فليبحث له عن مهربٍ من مكان تزيين الشيطان للعصيان.

وأما هي فلتتأكد من عدم خروجه: إما بوقوفها حائلًا بينه وبين الباب، وإما لصده عن

1- لطائف الإشارات = تفسير القشيري (2/ 179) ، تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل (2/ 104)

ذهابٍ بلا إياب، ولكنه أسرع منها فلم يبق إلا أن تتعلق بقميصه فتجذبه بشدة مع رد الباب بعنف ليبقى مغلقًا، وربما ليعود مغلقًا إن استطاع يوسف فتح شيء منه.

واعجب لهذا التعبير :كم يختزل من صور، ويدل على مَشَاهِد، بل كان هذا التعبير الجميل الجليل: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ -كما يقول البقاعي-: "دليلًا على أن كلًا منهما بذل أقصى جهده في السبقِ، فلحقته عند الباب الأقصى، مع أنه كان قد سبقها بقوة الرجولية وقوة الداعية إلى الفرار إلى الله، ولكن عاقه إتقانها للمكر بكون الأبواب كانت مغلقة ، فكان يشتغل بفتحها، فتعلقت بأدنى ما وصلت إليه من قميصه، وهو ما كان من ورائه خوفَ فواته، فاشتد تعلقها به مع إعراضه هو عنها وهربه منها، ففتحه وأراد الخروج فمنعته، ولم تزل تنازعه حتى قَدَّت قميصه"[1]. فانظر كيف تدهش هذه التعبيرات القرآنية التصور العقلي لتلك القصة، وكيف تبين أدقَّ تفاصيلها مع قلة ألفاظها عند التدبر لكلام من خلق الوجود، بل انظر كيف تَظْهَرُ حبكةُ القصة ومشاهدُها من ثنايا الجمل القرآنية لتوقن بأن الله لا غيره الحيُّ القيوم المعبود.

وأما القاعدة الثانية التي نأخذها من هذا الاستباق: فهي عدم الركون إلى الثقة بالنفس أمام إغراءات المعاصي، وليبني النبي صلى الله عليه وآله وسلم فينا الأشواق بالاستباق إلى الملك العظيم الخلاق، ويبعد أوهام الثقة بالنفس في أماكن الإغراء الشهواني السام بينما يظنه بعضهم كالترياق يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لسيدة نساء العالمين فاطمة رضي الله عنها: ((ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به؟ -قال حثًّا لها على عدم ترك ما سيقوله وعلى الاهتمام، لا أنها رضي الله عنها تراخت في التطبيق-: أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حيّ يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين))[2]، وعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((من قال: اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في

1- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (4/ 31) .
2- البزار13 /49 برقم 6368 عن أنس، وذكره الألباني في الصحيحة برقم227.

هذه الحياة الدنيا أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمدا عبدك ورسولك؛ فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير.-وفي رواية عن زيد بن ثابت-: وأشهد إنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضيعة وعورة وذنب وخطيئة، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهدا توفينيه يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد. إلا قال الله لملائكته يوم القيامة: إن عبدي قد عهد إلي عهدًا فأوفوه إياه؛ فيدخله الله الجنة))[1].

وهذا الشابُّ يوسف لم يقل أمام إغراءات الشهوة المحرمة أنا "أثق بنفسي" وبقي، بل استبق هاربًا خائفًا من أن تخور عزيمته البشرية بحكم الطبيعة أمام التزيين الشيطاني.

وهذا يذكرنا بما حكاه الغزالي في الإحياء عن شابٍّ كوفيٍّ متعبدٍ لازم المسجد الجامع لا يكاد يفارقه، وكان حسنَ الوجه، حسنَ القامة، حسنَ السمت، فنظرت إليه امرأةٌ ذات جمالٍ، فشغفت به وطال عليها ذلك، فلما كان ذات يوم وقفت له على الطريق وهو يريد المسجد، فقالت له: يا فتى اسمع مني كلماتٍ أكلمك بها، ثم اعْمَلْ ما شئت، فمضى ولم يكلمها، ثم وقفتْ له بعد ذلك على طريقه وهو يريد منزله، فقالت له: يا فتى اسمع مني كلماتٍ أكلمك بها. فأطرق مليًّا وقال لها: هذا موقف تهمة، وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعًا. فقالت له: والله ما وقفت موقفي هذا جهالةً مني بأمرك، ولكن معاذ الله أن يتشوف العباد إلى مثل هذا مني، والذي حملني على أن لقيتك في مثل هذا الأمر بنفسي لمعرفتي أن القليل من هذا عند الناس كثير، وأنتم معاشر العُبَّاد على مثال القوارير أدنى شيءٍ يعيبها، وجملة ما أقول لك: إن جوارحي كلها مشغولةٌ بك، فالله الله في أمري وأمرك. فمضى الشابُّ إلى منزله، وأراد أن يصلي فلم يعقل كيف يصلي، فأخذ قرطاسًا وكتب كتابًا ثم خرج من منزله وإذا بالمرأة واقفةٌ في موضعها، فألقى الكتاب إليها، ورجع إلى منزله، وكان فيه:

"بسم الله الرحمن الرحيم. اعلمي أيتها المرأة أن الله عز وجل إذا عصاه العبد حلم،

1- أحمد 1 /412، برقم 3916، وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات رجال الصحيح إلا أن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود لم يسمع من ابن مسعود.

فإذا عاد إلى المعصية مرة أخرى ستره، فإذا لبس لها ملابسها غضب الله تعالى لنفسه غضبةً تضيق منها السموات والأرض والجبال والشجر والدواب، فمن ذا يطيق غضبه، فإن كان ما ذكرتِ باطلًا، فإني أذكرك يومًا تكون السماء فيه كالمهل، وتصير الجبال كالعهن، وتجثوا الأمم لصولة الجبار العظيم، وإني والله قد ضَعُفْتُ عن إصلاح نفسي فكيف بإصلاح غيري، وإن كان ما ذكرتِ حقًّا فإني أدلك على طبيب هُدىً يداوي الكلوم الممرضة، والأوجاع المرمضة، ذلك الله رب العالمين فاقصديه بصدق المسألة، فإني مشغول عنك بقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ (غافر)، فأين المهرب من هذه الآية؟".

ثم جاءت بعد ذلك بأيام، فوقفت له على الطريق، فلما رآها من بعيدٍ أراد الرجوع إلى منزله كيلا يراها، فقالت: يا فتى لا ترجع فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبدًا إلا غدًا بين يدي الله تعالى، ثم بكت بكاء شديدًا، وقالت: أسألُ لك الله الذي بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما قد عسر من أمرك. ثم إنها تبعته وقالت: امنن علي بموعظةٍ أحملها عنك، وأوصني بوصيةٍ أعمل عليها.

فقال لها: أوصيك بحفظ نفسك من نفسك، وأذكرك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ (الأنعام: 60)[1]. والمقصود أن هذا الشابُّ عمل بما عمل به يوسف –عليه السلام– من عدم الثقة بنفسه مع تزيين الشيطان ومكره، وبذا حافظ هذا الشابُّ القانت على نقائه وطهره، وذلك فعل من يرى أعظم الفوز في عاقبة أمره.

1- إحياء علوم الدين (3/ 106)

المشهد الحادي عشر

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ (يوسف: 25)

الخطط الآثمة الماكرة للحظات الفاجرة

كان يوسف –عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام– فتىً قويًّا سريعًا، فلما استبق الباب أعيا المرأةَ أن تُدركَه، فضلًا عن أن تقبض عليه وتمسكه، ولكنها ضغطت على نفسها لتسرع أكثر خوفَ فراره منها، وذهاب فرصتها التي قد لا تتكرر إن فاتتها، إلا أن الشابُّ كان صادقًا قانتًا مخبتًا جادًّا في فراره من المعصية المدلهمة، والخطئية المظلمة، ولا يرى نور ربه وبرهانه إلا في الفرار حيث يجذبه النور ليسرع هاربًا بين زوايا البيت الذي أظلم بالمعصية، فاشتد هو وحاولت هي أن تمنعه بكل ما أوتيت من قوةٍ، فلم تستطع أن تظفر بجزءٍ من جسده، إلا أنها أدركت منه ثوبه الذي جذبته وهو مندفعٌ فلم تستطع إرجاعه، ولم يلتفت واستمر يعدو بقوته، وتشبثت هي بثوبه عسى أن تكسر سَورته، فزاده ذلك إصرارًا ولم يلتفت إليها لئلا يزين الشيطان له ما قد بغضه برهانُ ربه الذي أضاء له أركان قلبه، فعندها شقت قميصه من جهة ظهره، "ولم يضر يوسف –عليه السلام– أن قدّت قميصه وهو لباس دنياه بعد ما صحّ عليه قميص تقواه"[1].

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ (يوسف: 25)

وصل يوسف –عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام– إلى الباب الأخير، وهو الباب الخارجي الذي هو المخرج من الدار، والمُخَلِّصُ من العار بعد أن استطاع اجتياز بقية الأبواب هربًا من نجس الفجار، واستطاع فتح الباب الأخير قبل أن تستطيع تلك المرأة رَدَّه، ولم تقدر منه على حيلةٍ إلا شقَّها ثوبه عندما جذبته تريد منعه من الهروب، فجذبت ثوبه

1- لطائف الإشارات = تفسير القشيري (2/ 179) .

جذبًا عنيفًا يعكس عنفها في جذبه، وخوفها من فوته، وترتب على هذه الجذبة الشديدة أن شقت ثوبه شقًا قويًا حتى سقط الثوب على الأرض من شدة الجذب، ولم يبق إلا إزاره، ونجح الشابُّ المخبت يوسف -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- في الوصول إلى الباب الخارجي، وكان ذلك أعظم الأفعال الدالة على صدق حبه لله الكبير المتعال، وخشيته من تبعات معصيةٍ شديدة الأثقال، فحدثت المفاجأة:

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ (يوسف: 25)، والآن فلتنظر إلى هذه الحالة العجيبة في معركة الاستباق التي أعان عليها مالك الغروب والإشراق:

فشابٌّ جرى هربًا من مواقعة الخيانة والفجور، وطلبًا لرضى الملك الجليل الغفور، وامرأةٌ قد ركبت الشرور، وأطاعت شهوات نفسها تبحث كيف تطفئ نور الفضيلة، وتشعل لهب الرذيلة.. عندها منَّ الله على يوسف -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- وأنقذه، فألفيا سيدها لدى الباب، وانظر إلى جمال هذا التعبير بعين الاندهاش والإعجاب ليحكي لك فصولًا رائعة من الكلام الذي يتوارى خلف المُستَطَرِ في الكتاب:

فكلمة (أَلْفَيَا) من الْإِلْفَاء: وهو وِجْدَانُ شَيْءٍ عَلَى حَالَةٍ خَاصَّةٍ مِنْ غَيْرِ سَعْيٍ لِوِجْدَانِهِ، فَالْأَكْثَرُ أَنْ يَكُونَ مُفَاجِئًا، وقد يكون حَاصِلًا عَنْ جَهْلٍ بِأَوَّلِ حُصُولٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ (سُورَة الْبَقَرَة: 170). وهذه الكلمة ﴿أَلْفَيَا﴾ تدل على مفاجأة المواجهة بين المتسابقَين وبين عزيز مصر ومن معه.

وكلمة ﴿سَيِّدَهَا﴾ ترى فيها أنه لَمْ يَقُلْ سَيِّدَهُمَا لِأَنَّ اسْتِرْقَاقَ يُوسُفَ لم يكن شرعيًا، ولأنه اتخذه ولدًا لا عبدًا، وانظر لجمال القرآن وعظمة كلام الرحمن، ودقة التعبير الذي يفوق خيال الإنسان: لقد أَطلق لفظة (السَّيِّدِ) عَلَى الزَّوْجِ ليحكي أحد الملامح التاريخية التي كانت من عَادَة الْقِبْطِ حِينَئِذٍ؛ إذ كَانُوا يَدْعُونَ الزَّوْجَ سَيِّدًا، بينما لم تكن تلك عادة العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فَالتَّعْبِيرُ بِهِ هُنَا مِنْ دَقَائِقِ التَّارِيخِ، وذلك مِثْلُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ (سُورَة يُوسُف: 76) [1]، فنظام الملك أو دستوره كان يسمى عند

1- التحرير والتنوير (12/ 256) .

القبط دينًا، لأن ملوك مصر اخترعوا نظامًا يقوم على تأليههم، ويشتمل على كل مناحي الحياة، فهو نظام حياتي كما هو نظام تعبدي، بخلاف نظام العرب قبل الإسلام، فالدين عندهم طقوس محددة، ونظام حياتهم مستقلٌ عنه، قائمٌ على الأعراف ومبادئ القبائل والأسلاف.

فلننظر إلى هذا المدد الإلهي: لقد أمد الله يوسف بتوفيقه وتأييده فجاء سيدها وولي نعمتها من البشر في غير وقته، والتقى قَدَر يوسف الشرعي في الهرب من مكانٍ رفع إبليس فيه رايته بالقَدَر الكوني في مجيء رئيس وزراء مصر.. لقد كان مجيئه في لحظةٍ حاسمةٍ عونًا من الله ليوسف عليه السلام ليرفع عنه تبعات هذه المعركة الضارية مع الشيطان: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا مَّفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ (الأنفال).

خطة اللحظة الماكرة

فمَاذَا حَدَثَ عِنْدَ مُفَاجَأَةِ لقاء سَيِّدِهَا لدى الباب وَهُمَا فِي تِلْكَ الْحَالَةِ ؟

لعلها ارتبكت، ثم بسرعة الكيد العظيم الذي تتمتع به أظهرت الثبات مع بروز نوبةٍ من الفزع سببه –فيما يُخَيَّلُ للناظر– هروبُها من جريمةٍ خافت منها، وليس سَعْيُها لتُثْبِتَ جريمةً أعياها تنفيذُها، ثم بسرعةٍ معتادة توجد عند دهاة الأشرار بحثت في قواميس المكر والخداع عن حيلةٍ تدرأ بها التهمة عن نفسها، فالريبة تحيط بها من كل مكان، فأسرعت بالكلام قبل أن يبادر الشابُّ بالإخبار، فقالت "مبادرةً من غير حياء ولا تلعثم"[1]، إِمْعَانًا فِي الْبُهْتَانِ لتُظْهِرَ صدقها وثباتها، وتُخَيِّلَ لَهُ أَنَّهَا عَلَى الْحَقِّ:

﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ انظر إلى هذه العبارات هنا الصادرة عنها لتجد أن التعبير القرآني اختصر كمًّا عظيمًا من حديثها أو من مقاصدها التي تريد بها قلب الحقائق،

1- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور(4/ 32) .

فهي تقول: ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا أي سوءٍ كان، ولو كان غير زنى، فكيف إذا كان زنى؟ وانظر إلى تعبيرها الذي يعكس شدة المكر، وعظيم الكيد، فقد ذكرت كلمة (الأهل) ونسبتْه إليه ﴿بِأَهْلِكَ﴾ لتبلغ الغاية في تهييج الحميّة والتذكير بالأَنَفَة[1].

﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ (يوسف)؟

وكأنها تابعت الكلام فقالت: إنه راودني عن نفسي، فدفعته، فشققتُ قميصه، وتعجبْ هنا من عظمة التعبير القرآني عن الخطة الماكرة التي هيأتْها المرأة بسرعة بديهةٍ عجيبةٍ خلال لحظات، فهذا القول الذي أسرعت في طرحه على سيدها مَكْرًا وَخِدَاعًا يتضمن مكرًا كُبَّارًا يحتاج بعض الناس أيامًا وربما أشهرًا ليحبك قصةً مختبئة خلف التعبير به؛ إذ تجد هذا الكلام منها قد أخفى عددًا من المراتب التعبيرية الدقيقة:

المرتبة الأولى: أوهمت زَوْجهَا أَنَّ يُوسُفَ -عليه الصلاة والسلام- قَدِ اعْتَدَى عَلَيْهَا بِمَا يَسُوءُهُ وَيَسُوءُهَا.

المرتبة الثانية: أَفْرَغَتِ الْكَلَامَ في صورة كلية لتأخذ الصيغة القانونية، وَلِتضع قَاعِدَةً لَا يُعْرَفُ الْمَقْصُودُ مِنْهَا، فَلَا يَسْمَعُ الْمُخَاطَب إِلَّا الْإِقْرَارُ لَهَا، وَلَعَلَّهَا كَانَتْ تَخْشَى أَنْ تَكُونَ مَحَبَّةُ الْعَزِيزِ لِيُوسُفَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- مَانِعَةً لَهُ مِنْ عِقَابِهِ، فَأَفْرَغَتْ كَلَامَهَا في هذه الصيغة التي تضمنت التهمة والحكم، والقانون الذي أُقيم عليه الحكم. وَكَانَتْ تُرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ لَا يَشْعُرَ زَوْجُهَا بِأَنَّهَا تَهْوَى غَيْرَ سَيِّدِهَا، وَأَنْ تُخِيفَ يُوسُفَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- مِنْ كَيْدِهَا لِئَلَّا يَمْتَنِعَ مِنْهَا مَرَّةً أُخْرَى[2].

المرتبة الثالثة: لاحظ أنها في هذا القول: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ لَمْ تُصَرِّحْ بِذَنْبِهِ، لِئَلَّا يَشْتَدَّ غَضَبُ زوجها عليه، فَيُعَاقِبَهُ بِغَيْرِ مَا تُرِيدُهُ كَأن يبيْعه مَثَلًا، وهي لا تريد ذلك، بل تريد بقاءه قريبًا منها، وتحت نظرها.

1- لطائف الإشارات = تفسير القشيري (2/ 180) .
2- التحرير والتنوير (12/ 256) .

المرتبة الرابعة: تضمن كلامها تَهْدِيدَ يُوسُفَ وَإِنْذَارهُ وإرعابه بأنها تستطيع قلب المجتمع كله عليه، فَأَمْرُهُ بِيَدِهَا، وبذا تقلب مفاجأة رؤية العزيز لصالحها، وبذا يخاف يوسف منها ويَخْضَع لَهَا وَيُطِيعهَا.

المرتبة الخامسة: قالت: ﴿إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ﴾ **فأتت بالفعل**، والمراد منه أن يسجن يومًا، أو قليلًا، وذلك حتى لا يبقى بعيدًا عنها؛ لأن الحبس الدائم لا يُعَبَّرُ عنه بهذه العبارة، بل يقال فيه كما قال فرعون: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ٢٩﴾ (الشعراء)، فأتى بالاسم للدلالة على طول سجنه.

المرتبة السادسة: اختارت أن تجعل يُوسُفَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– بَيْنَ صِنْفَيْنِ مِنَ الْعِقَابِ، وَهُمَا: السِّجْنُ، أَيِ الْحَبْسُ، أو العذاب الأليم، فأما الحبس فكان عِقَابًا قَدِيمًا فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ، وَاسْتَمَرَّ إِلَى زَمَنِ مُوسَى –عَلَيْهِ السَّلَامُ– كما في آية الشعراء الآنفة الذكر، وأما الْعَذَابُ فَهُوَ أَنْوَاعٌ، وَهُوَ عِقَابٌ أَقْدَمُ فِي اصْطِلَاحِ الْبَشَرِ، وَمِنْهُ الضَّرْبُ، وَالْإِيلَامُ بِالنَّارِ، وَبِقَطْعِ الْأَعْضَاءِ.

المرتبة السابعة: انظر لمكرها! فقد لَقَّنَتْ زوجَها الحكم، وبينت له الطريقة التي ترغب فيها في معاقبة الشاب، حتى لا يبالغ زوجها في العقوبة حدًّا يجعلها تفقد محاولاتها القادمة مع يوسف –عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام–، فذكرت السجن أو العذاب الأليم؛ لئلا يقصد زوجها قتله، ففي عين ما سعت به على يوسف حاولت أن تضمن حياته، والإبقاء عليه، فقالت: ما جزاء من فعل هذا إلا السجن، فإن لم ترض بذلك وستزيد فالعذاب الأليم يعني الضّرب المبرّح.. كأنما ذكرت حديث العقوبة بالتدريج.

وأوقعت السجن الذي يبقى مؤجّلًا في مقابلة الضرب الأليم المعجل الذي قد يحدث فور الرؤية بأن يأمر عزيز مصر غلمانه بضربه مثلًا، وذلك ليعلم أن السجن الطويل –وإن لم يكن فيه في الظاهر ألم– فهو في مقابلة الضرب الشديد الموجع[1].

1- لطائف الإشارات = تفسير القشيري (2/ 180) .

المرتبة الثامنة: لقنت زوجها ما تريده تحديدًا، فذكرت السجن أولًا مع أن حقيقة واقعها أنها لا تريد السجن الآن لأنه سيبعد يوسف -عليه السلام- عنها، فلذلك أردفت بذكر العذاب الأليم، ليلجأ زوجها إليه؛ لأن العادة أن الإنسان المستمع يذكر آخر الأمر مما يستمعه أكثر من ذكره لأوله.

المشهد الثاني عشر

التحقيق في القضية (العون الإلهي ناتجٌ عن اللجوء الصادق):

هذه آياتٌ أربع تبين مجرى التحقيق في هذه القضية الخطيرة التي افترتها هذه المرأة الضالة، وقد فصَّل الله سير الإجراءات في التهمة الموجهة ليوسف –عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام–، فقد كان رئيس وزراء مصر يُقَلِّبُ النظرَ، ويملؤه الغيظ والخزي، وربما ناء فكره بعددٍ من الصور، ولكنه يرى شابًّا زال عنه قميصه، ويظهر منه الهرب وإعياء الفرار، ولا يظهر عليه تعب التمتع ومروادة النساء وشهوة الفجار، ويشاهد مع مَن معه ما " بهما من الغبار والهيئة التي لا تليق بهما"[1]، ويوسف –عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام– لم ينطق ولم يتكلم قبل نطق هذه الماكرة لأمرين:

الأول: لأنها سبقته بالحديث؛ حالَ كل خائنٍ يخاف انكشاف أمره، وظهور فجوره.

الثاني: جريًا "على سجايا الكرام بأن سكت سترًا عليها، وتنزهًا عن ذكر الفحشاء"[2]، إلا أن عزيز مصر مع امرأته ألجآه للجواب، فكأن عزيز مصر قال له –كما روى ابن الجوزي في زاد المسير عن وهب بن منبِّه–: " أَحُنْثَني يا يوسف في أهلي، وغدرتَ بي، وغررتني بما كنت أرى من صلاحك!".

دفع التهم حتى يظهر الحق، ويشع النور:

لا بد للأبرياء من أن يقذفوا بالحق على الباطل ليدمغه ويقصمه، وعندما يفعلون ذلك، فيجب أن يكون قولهم واضحًا في ذكر الهجوم الذي يستحقه فجور المعتدين، لا في ذكر

1- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – العلمية (4/ 32) .
2- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – العلمية (4/ 32) .

النفي الذي يزيد الأبرياء ضعفًا وتهمة أمام العالمين، ولذا ثبت الله تعالى يوسف عليه الصلاة والسلام فأظهر الانتصار، ولم يسكت فعلَ الأغرار، فقال مدافعًا عن نفسه ببيان إجرامها: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ (يوسف: 26).

تأمل اللفظة العابرة من فمه: ﴿هِيَ﴾ بضمير الغيبة ربما لاستحيائه عن مواجهتها بإشارةٍ أو ضمير خطاب، وربما لتقززه من النظر إليها بعد ما ظهر منها من خيانة.. ﴿رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ (يوسف: 26)، أي وفررت منها فأدركتني، فشقت قميصي.

لله الكريم ابن الكرماء –عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام–: "ما قال ذلك إلا حين اضطرته إليه بنسبته إلى الخيانة، وصِدْقُه فيما قال لا يحتاج إلى بيان أكثر من الحال الذي كانا فيه، وهو أنهما عند الباب، ولو كان الطلب منه لما كانا إلا في محلها الذي تجلس فيه، وهو صدر البيت وأشرف موضع فيه"[1]، إما لأنها رضت، أو أبت فلا يمكنها بضعفها دفع شاب مكتمل القوة، وكلام يوسف –عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام– كان واضحًا صريحًا محددًا لا يحمل تلكؤًا أو تلجلجًا، أو ترددًا **ضعيفًا، أو مداهنة مهترئة، أو مداجاة سياسية، أو نفاقًا اجتماعيًّا.**

الدفع والدفاع باللسان أقل واجبات الإنسان أمام التهم الباطلة:

من الموقف العظيم للكريم بن الكرماء –عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام– نستنبط أنه يجب على الإنسان أن يدفع تهم الباطل عن نفسه، فكيف يكون الواجب على الأفراد والمؤسسات والدول والحكومات في رد الاتهامات المجرمة والأقاويل الظالمة التي يحاول أن يلصقها المعتدون هذه الأيام بالإسلام والمسلمين؟ وكم سَحَّر المسلمون لذلك ضمن الحشد الإعلامي المدهش الذي يمتلكونه؟ لماذا تتبوأ قنوات العبث واللهو واللعب المركز الأول بدلًا من بيان فضائل الدين، ونشر مزايا النور المبين ورد شبه المعتدين؟

1- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – العلمية (4/ 32) .

التأييد الإلهي: طفلٌ رضيعٌ يتكلم، ويفصل ويحكم:

بعد الكلام من الطرفين: امرأة العزيز، ويوسف –عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام–، صَارَتِ النَّازِلَةُ أَوِ الْقَضِيَّةُ بِاخْتِلَافِ قَوْلَيْهِمَا مَوْضُوعَ بَحْثٍ وَتَحْقِيقٍ وَتَشَاوُرٍ بَيْنَ زَوْجِهَا وَأَهْلِهَا، لَمْ يُبَيِّنْ لَنَا التَّنْزِيلُ تَفْصِيلَهُ، لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْقِصَّةِ فِيهِ بَيَانُ جرأة أتباع الشهوات على العدوان، ومبادرتهم إلى نشر الكذب والبهتان، وبيان نَزَاهَةِ يُوسُفَ وَفَضَائِلِهِ ليأخذ العبرة منها كل شابٍّ حائر قد امتلأ فكره بأحلام الشباب الريان، وَإِنَّمَا عَلِمْنَا أَنَّ هَذَا وَقَعَ بِالْفِعْلِ، كَمَا نَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ مُتَوَقَّعًا بِحُكْمِ الْعَادَةِ وَالْعَقْلِ.

عندها أنطق الله رضيعًا من أهلها كان مع عزيز مصر، فقد روى الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((لم يتكلم في المهد إلا: عيسى ابن مريم، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وابن ماشطة بنت فرعون)). وقال الله تعالى عن هذا الرضيع: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ (يوسف: 26)، فسُمِّيَ قَوْلُهُ شَهَادَةً لِأَنَّهُ يؤول إِلَى إِظْهَارِ الْحَقِّ فِي إِثْبَاتِ الاعْتِدَاءِ المزعوم ليُوسُفَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– عَلَى سَيِّدَتِهِ أَوْ دَحْضِهِ. وَهَذَا مِنَ الْقَضَاءِ بِالْقَرِينَةِ الْبَيِّنَةِ، لِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ أَمْسَكَتْ ثَوْبَهُ لِأَجْلِ الْقَبْضِ عَلَيْهِ لِعِقَابِهِ لَكَانَ ذَلِكَ فِي حَالِ اسْتِقْبَالِهِ لَهُ إِيَّاهَا، فَإِذَا أَرَادَ الِانْفِلَاتَ مِنْهَا تَخَرَّقَ قَمِيصُهُ مِنْ قُبُلٍ، وَبِالْعَكْسِ إِنْ كَانَ إِمْسَاكُهُ فِي حَالِ فِرَارٍ وَإِعْرَاضٍ.

وربما أَنَّ الِاسْتِدْلَالَ بِكَيْفِيَّةِ تَمْزِيقِ الْقَمِيصِ نَشَأَ عَنْ ذِكْرِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ **وُقُوعَ** تَمْزِيقِه.. فكأنها كانت تُحَاوِلُ أَنْ تَجْعَلَهُ حُجَّةً لها عَلَى أَنَّهَا أَمْسَكَتْهُ لِتُعَاقِبَهُ، أو لتدفعه وتهرب بينما هو يحاول معها، أو ربما كان ذكر الشاهد للقميص بسبب رؤية القوم له مرميًّا عن بعد مع وضوح تمزقه دون ظهور هيئة التمزق وكيفيتها، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا خَطَرَ بِبَالِ الشَّاهِدِ أَنَّ تَمْزِيقًا وَقَعَ، إلا أن تأييد الله هو الذي نفع ودفع، وَإِلَّا فَمِنْ أَيْنَ عَلِمَ الشَّاهِدُ تَمْزِيقَ الْقَمِيصِ.

فإن لم يكن الشاهد طفلًا صغيرًا رضيعًا على قول من ضعف الحديث، فالظَّاهِرُ أَنَّ

الشَّاهِدَ كَانَ يَظُنُّ صِدْقَهَا فَأَرَادَ أَنْ يُقِيمَ دَلِيلًا عَلَى ذلك، فَوَقَعَ عَكْسُ ذَلِكَ كَرَامَةً لِيُوسُفَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-(1).

فهذا الشاهد العجيب ذكر كلامًا قضائيًّا محكمًا يشير به إلى قولٍ فصلٍ بين الشابُّ المبارك والمرأة التي استحوذ عليها الشيطان، ويبين أن تِبْيان حقيقة القصة في القميص، فقال:

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ﴾ إن كان **القميص** انشق من الجهة الأمامية فقد صدقت في دعواها؛ لأنه أقبل عليها فتكون قد دافعته عن نفسها، فلم يندفع حتى شق ثوبه الذي سقط عنه، أو تكون هربت منه وهو يتبعها، والتصق قميصه بشيءٍ فلم يبال به حتى انشق وسقط، وأكد على صدقها بقوله: ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾(يوسف)، وإنما أضاف هذه الجملة لأمرين:

الأمر الأول: أن صدقها ليس قاطعًا في منع صدقه.

الأمر الثاني: لِزِيَادَةِ تَقْرِيرِ الْحَقِّ كَمَا هُوَ شَأْنُ إصدار الْأَحْكَامِ في المحاكم.

ثم ذكر الاحتمال الثاني فقال: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (يوسف:27)، لأنه يكون هرب منها، فجذبته، فانشق ثوبه لتحرزه حتى عن الالتفات إليها.

1- التحرير والتنوير (12/ 257) .

المشهد الثالث عشر

عندما يظهر الله براءة الأطهار

حقيقة الطهر اليوسفي، والثبات عند الفتن

ترى كيف كان موقف هذه المرأة عندما سمعت الشاهد يصدر رأيه التحقيقي للبحث عن قرائن تفيد في معرفة الصادق من الكاذب؟

لعلها لم تتأثر كثيرًا، وإن كانت ربما خافت للوهلة الأولى، لكن ظلمة المعصية تجعلها قليلة الاكتراث بالنتيجة في ظل ثقافةٍ مجتمعيةٍ لا تبالي كثيرًا بالشرف والبراءة والعفاف، وتمتلئ بقصص المغامرات المجرمة الآثمة، حيث تستمتع الألسن بنقلها وبصورها القاتمة، وتتفكه المنتديات بتناقلها، ويؤدي إعلام المجالس دوره في إشاعتها.

فأُتِيَ بالقميص، فرآه عزيز مصر قُدّ من دُبُر.. فماذا حدث؟

أما هي فصمتت صمت القبور.. لم تحاول تغيير الاستنتاج، ولا ردَّ التهمة، ولا التنصل مما صار عندها من أعظم أهداف حياتها، وكان صمتُها بمثابة التأكيد على صدق التحقيق.. لقد صدَّقت بصمتها النتيجة التي تم التوصل إليها بعد أن رأوا الدليل من غير شكٍّ ولا تلفيق.. فماذا فعل زوجها أمام الرائحة النتنة للخيانة التي يشوبها الإصرار والترصد؟

كيد الإغواء والاعتداء وانحلال السفهاء:

لم يحتج الأمر كبير تفكير.. هذا الرجل قد رأى وشاهد الأمر العظيم الكبير.. عزيز مصر الذي يشبه أن يكون رئيس وزرائها ينتمي إلى طبقة الكبراء، وشخصيته لها طبيعتها الخاصة، ولمنصبه حساباته الشكلية (الديكورية).. فانظر كيف جمعت هذه الشخصية قبائح

برود الحساسية الفردية إزاء آثام المجتمع ومنكراته، والسلبية المفرطة لمعالجة هذا المرض الذي يجتاح امرأته، والهوس الذي غلب عقلها، وربما يتكرر في مجتمعه.. لربما رأيت في صفاته الشخصية العبثَ السياسيَّ يتم إسقاطه على النفسية الأسرية، فعالج الموقف بالنفاق الاجتماعي، لقد أمسك العصا من الوسط، ربما كما كان يعالج المواقف المجتمعية بالطبيعة السياسية الشاذة التي تتسرب إليها الجوانب المظلمة من منصب المسؤولية الكبيرة، وهي -ببعدها عن أنوار الوحي والفطرة السليمة- غالبًا ما تتم بضعف النخوة، وغلبة الرياء الاجتماعي، والاكتفاء بستر الظواهر لإنقاذ الصورة العامة أمام مجتمعٍ يضعف فيه وجود الأهداف الحقيقية، ولذا فقد جعل حكمه في واقعة خيانة امرأته مكوناً من ثلاثة أجزاء:

الجزء الأول: وضع فيه قاعدةً عامةً تبين نفسية النساء فقال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾، كأنه يقول بأنَّ مقارفة الإجرام الشهواني مع **محاوَلَةِ** التَّنَصُّلِ منه ومن تبعاته جزءٌ من كيدكن، وهذه العبارة عندما تسمعها تلك المرأة المفتونة لا ندري هل ستشعر بأنها توبيخٌ وتقريعٌ واستياء أم مدحٌ وثناء!!

ولكن ما هذا المصطلح الذي وضعه عزيز مصر (كيد النساء) فقال: (مِن كَيۡدِكُنَّ)؟ ما هذا الأسلوب الاجتماعي الخطير الذي يذكره عزيز مصر كأنه يقر وجوده، ويُطَبّع النفوس على التعامل معه بدلًا من معالجته؟

والْكَيْدُ: وصفٌ شاملٌ لعملية مخادعة تتم من خلال فِعْل شَيْءٍ في صُورَةٍ غَيْرِ مَقْصُودَةٍ لِلتَّوَصُّلِ إِلَى مَقْصُودٍ، ويتم ذلك بناء على خطةٍ مراوغة ذات خطواتٍ خاصةٍ، والعجيب أن هذا الرجل لما عاتب امرأته أظهر تعبيره أن هذا الكيد النسوي من الخصائص الأُنثوية التي يقرب أن تكون محل مدح بدلًا من أن تكون محط ذمٍّ، فقال لها: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾ الْمَعْهُودِ مِنْكُنَّ مَعْشَرَ النِّسَاءِ، فَهُوَ لَمْ يَخُصَّ الْكَيْدَ بِزَوْجِهِ حتى يقال: إِنَّهُ أَمْرٌ شَاذٌّ مِنْهَا يَجِبُ التَّرَوِّي في تَحْقِيقِهِ بِأَكْثَرَ مِمَّا شَهِدَ بِهِ بعض أَهْلِهَا، وَهُوَ لَا يُتَّهَمُ في التَّحَامُلِ عَلَيْهَا وَظُلْمِهَا، بَلْ هُوَ سُنَّةٌ عَامَّةٌ فِيهِنَّ، فَقَدْ أَثْبَتَ خَطِيئَتَهَا بما يشبه تبرئتها، فأفٍّ له ولها، واستدل عَلَى ذلك بِالسُّنَّةِ الْعَامَّةِ لَهُنَّ في أَمْثَالِهَا فقال: ﴿إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ أي لَا قِبَلَ لِلرِّجَالِ بِهِ، وَلَا

يَفْطِنُونَ لِحِيَلِكُنَّ فِي دَقَائِقِهِ حتى قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: وَلِرَبَّاتِ الْقُصُورِ مِنْهُنَّ الْقَدَحُ الْمُعَلَّى مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُنَّ أَكْثَرُ تَفَرُّغًا لَهُ مِنْ غَيْرِهِنَّ.

ومع مكرهن وكيدهن إلا أن كثيرًا منهن يخدعن ببريق المديح الزائف عندما يريد الغاوون أن يجعلوا منهن المدفع القاصف لتدمير أخلاقيات المجتمع ما لم يُعصَمن بنورٍ من الله، وهداية من كتابه.

ولنأخذ من هذا الموقف الفاتر لعزيز مصر تربيةً تقينا مصارع القوم، وتزكيةً تأخذ بنواصينا من مواطن الخيانة والزلل، فكثيرٌ من المترفات ينشغلن بالمعاصي والترهات مع وجود من يكفيهن مؤنة العمل، ويصبح الفراغ مصدرًا للتعاسة والخيانة والكيد ووضع الدسائس التي يرضعها الشيطان الغافلين من الناس، وقد قال أبو العتاهية:

إن الشباب والفراغ والجِدة مفسدة للمرء أي مفسدة

ونستطيع أن نستنبط من الآية ضرورة وضع دورات ثقافية وعلمية ووعظية للنساء، وإلا تحول وقتهن إلى وضع خطط كيدية يتم التفاخر بها ليس لها من هدفٍ إلا المعاصي وارتكاب الموبقات.

الجزء الثاني الذي ذكر فيه عزيز مصر على واقعة زوجته: خطابٌ ليوسف –عليه الصلاة والسلام– قال له فيه: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ فناداه بحذف حرف النداء، لقربه وكمال تفطنه للحديث[1]، أي أَعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ حَتَّى لَا يَنْتَشِرَ خبرُهَا، وَلَا يَحْصُلَ الْعَارُ الْعَظِيمُ بِسَبَبِهَا، ولكن العجيب أنه لم يُصْدِر اعتذارًا ليوسف، ولم يُظهِر مديحًا لحفظه عرضه في غيبته، ولكمال طهره وصيانته، بل طلب منه أن يعرض عن الواقعة وذكرها وكفى.. أليس هناك خللٌ ظاهرٌ في تفكير هذا الرجل، وفطرته؟

1- تفسير القاسمي = محاسن التأويل (6/ 171) .

الجزء الثالث: خطابٌ منه لامرأته قال لها فيه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ﴾ (يوسف: 29): ولعله عنى بذَنْبِهَا اتِّهَامَهَا يُوسُفَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بِالْجُرْأَةِ وَالِاعْتِدَاءِ عَلَيْهَا، أما بقية الأمور فيا لِهذا الرجل العجيب!! كأنما نُزِعت الغَيرة من قلبه، وكأن ما فعلته امرأته كيدٌ معهودٌ يثير الإعجاب أكثر مما يثير العتاب، ولعل إبقاءه ليوسف -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- معها بدلًا من نقله إلى مكانٍ آخر يأمن به من وقوع الرِّيبة في أهله مع معرفته بكيدها يدل على هذه النفسية المريضة التي حطم الشيطان فطرتها في عالم المترفين، وقد خفف هذا الإنسان في عتابه لزوجته بما سمعناه، وختم تخفيفه بقوله: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ٢٩﴾ (يوسف) وَالْخَاطِئُ: فَاعِلُ الْخَطِيئَةِ، وَهِيَ الْجَرِيمَةُ. وَجَعَلَهَا مِنْ زُمْرَةِ الَّذِينَ خَطِئُوا تَخْفِيفًا فِي مُؤَاخَذَتِهَا.. ومجمل كلامه يدل على استخفافه بما وقع، وهو يعكس فطرةً منتكسة كما يدل على مقدار المعاناة التي يشهدها يوسف عليه السلام في هذا الواقع المنتكس.

وبعد هذا الحكم من عزيز مصر.. ماذا يقول المرء أمام شخصيته الرخوة، وتشجيعه الخفي لإشاعة الفاحشة؟ إنه عزيز مصر يغلب على شخصيته الرياءُ الاجتماعي، وسترُ الظواهر وإنقاذُها! وفيه تتمثل كل خصائص بيئته المنتكسة الفطرة: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ٢٩﴾.

وهنا يظهر جمال التوجيه الإسلامي في بناء العفة في الشباب والشابات حيث نجد التوجيه القرآني العظيم ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ (النور: 33)، ونرى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يبني هذه العفة بناءً محكمًا أمام الكيد الشيطاني الذي يريد انتزاع ذلك انتزاعًا، فقد روى أحمد عن عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((اضمنوا لي ستا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حَدَّثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم)).. نعم النداء للشباب:

فتدارسوا القرآن فهو هدى لكم وشفاء أنفسكم من الأسقام
وتعلموا فصحى اللغات فإنها علوية الأسرار والأنغام
كونوا عمالقة الشباب شهامةً وكرامةً واسموا عن الأقزام
إن الشباب إذا سما بطموحه جعل النجوم مواطئ الأقدام

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعلمنا الدعاء بالعفاف، فروى مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى)). ولبناء ذلك نمى خلق العفة والحياء عند النساء، فروى الترمذي وقال: حسن صحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة.)) فقالت أم سلمة: فكيف يصنعن النساء بذيولهن ؟ قال: ((يرخين شبرًا)) فقالت: إذًا تنكشف أقدامهن. قال: ((فيرخينه ذراعا، لا يزدن عليه)). فهذا نداء في زمن الضياع والعناء إلى المسلمة:

فتاة اليوم ضيعت الصوابا وألقت عن مفاتنها الحجابا
فلا تأبى حياء من رقيب ولم تخشى من الله الحسابا
بربكِ هل سألتِ العقل يوما أهذا طبع من رام الصوابا
أهذا طبع طالبة لفهمٍ إلى الإسلام تنتسب انتسابا
فما كان التقدم صبغ وجه وما كان السفور إليه بابا

المشهد الرابع عشر

إشاعات مجتمع الطبقات المترفة، وفتنة المُغامِرات العابثة الهابطة

نطوي فترةً زمنيةً لا تكون طويلةً عادةً في هذا النوع من القصص المتكرر معظم فصوله في حياة الناس لنصل إلى أحد مشاهدها التي تُنقل في التعبير القرآني كأنها أمام الأعين.. فماذا سنرى بعد المشهد السابق لامرأة العزيز وقد أُدينت بجرم التحرش والتشويه لأهل العفة ؟..

سنرى امرأة العزيز قد افتضحت أمام الملأ، وظهر مدى لعبها الشهواني، وصار مثار تندر المتندرين..

إنها تنتمي إلى مجتمعٍ مترفٍ مستكينٍ يقضي وقته في ابتكار الأحاديث الإعلامية عن ثقافة الفضائح وإشاعة الفاحشة التي منها ما ينتمي لحقائق ينبغي سترها، ومنها ما هو رجمٌ بالغيب، وقذفٌ بالتهم والشكوك والريب، وهو مجتمع يحب اللهو والعبث بينما لا يؤرقه ضياع الحقوق، ولا سجنُ الأبرياء، ولا تعاسة الفقراء، وهذا النوع في المجتمع بريءٌ في ظاهره، مجرمٌ في باطنه.. إذا تكلم باستنكارٍ واستهجانٍ عن الجرائم الأخلاقية إنما يتكلم ليبتكر أساليب جديدة في العبث الحيواني الرخيص يصطاد بها البُرآء والطاهرين ليوقعهم في شباكه.

والذي حدث بعد حادثة الخيانة التي قامت بها امرأة العزيز أنه تم تناقل خبرها في البيوتِ المتصلة بِبَيْتِ الْعَزِيزِ، وَقد قِيلَ ضمن مكر نساء هذا النوع من المجتمعات: إِنَّ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ بَاحَتْ بِالسِّرِّ لِبَعْضِ خَلَائِلِهَا، فَأَفْشَيْنَهُ كَأَنَّهَا أَرَادَتِ التَّشَاوُرَ مَعَهُنَّ، أَوْ أَرَادَتِ الِارْتِيَاحَ بِالْحَدِيثِ إِلَيْهِنَّ، (وَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ)[1]، أو ربما أرادت البحث عن مكرٍ أدهى مما صنعته، ولمَ لا؟ وهي التي لا تملأ وقتها بالأعمال الصالحة الإيجابية، ولا

1- التحرير والتنوير (12/ 260) .

بالفضائل الخيرة.. لم لا؟ وهي تزجي وقتها في ذكر الدنيا، وقصص المجون، وأحاديث الخلاعة والفتون.. إنه فراغ العقول، وخلو القلوب حيث لا تُملأ بالأهداف السامية، ولا الخلائق المغيثة الصافية، ولا الأفكار التي تُنَمّي الفضيلة، ولا الأعمال التي تزيد المجتمع نقاءً وتقدمًا، وتربي الأجيال النبيلة.

لما خرج الخبر من بيت عزيز مصر بدأ البث الإعلامي التحليلي لتلك الواقعة.. والتحليلات في مجتمع الفارغين والفارغات من نور الوحي هي التحليلات الهزيلة.. تُظهِر الاستنكار للواقعة في الكلام الظاهري، وتخفي التلهف لتقليد الفعل في الواقع الباطني.. إنها العقول الفارغة في المجتمع المترف: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾.

انظر للتعبير القرآني العجيب! إنها المدينة حيث تعيش فيها الطبقات المختلة.. لم يتحدث نساؤها عن الصدق والعفة بل لقد انتشر الخبر في المجتمع، وصار مادةً دسمةً بين الجهات المختلفة خاصة تلك التي لا شغل لها إلا اختراع مغامرات المراهقة في الطبقات المترفة.. انتشر الخبر فتحدث النساء بأمر يوسف عليه السلام، وأظهرن لمز امرأة العزيز في بقاع هذه المدينة من مصر، وشاع من أمرهما فيها ما كان، فلم ينكتم.. عندها أصدرت هؤلاء النسوة المترفات بيانًا إعلاميًّا تردده مجالس النميمة والغيبة وإشاعات قالات السوء.. وفي هذا البيان ذكرن ثلاث قضايا منكرةً تتعلق بامرأة العزيز:

القضية الأولى: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾، وانظر هنا لدقة التعبير وما يخفيه من مكر كل طرْفٍ حسير:

وصفن المرأةَ المتكَلم عنها بأنها ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ لم يسمينها باسمها بل بالإضافة إلى زوجها إرادةً لإشاعة الخبر؛ لأن النفس إلى سماع أخبار ذوي المكانات أميل، ولإظهار زيادة الاستنكار حيث إن هذه المذكورة هي امرأة عزيز مصر، والعزيز: المنيع بقدرته من أن يضام،

فالعزة أخص من مطلق القدرة.

وقلن: ﴿تُرَٰوِدُ﴾ بالمضارع دلالةً على استمرارها، ولم يقلن: راودت، ولهذه الكلمة صداها اللغوي، فهي تعبر عن أنهن قمن يتفكهن، ويستمتعن عندما أحسسن أن الأمر ما زال يتكرر[1]، ولذا تمت الصياغة بالفعل المضارع، والمراودة التي ذكرنها فعلٌ ثقيل، واتهامٌ شنيعٌ؛ لأنه يتضمن هتك أستار البيت.. فكيف وهن يذكرن في حديثهن أن هذه المراودة مستمرة **يشوبها التَّكرار، ويزيد أُوارَها تمييع الردع وعدم الانزجار.**

ومرةً أخرى تأمل الصورة في هذه الحكاية حيث قلن: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾ يا لروعة الوصف! عجيبةٌ هذه البلاغة القرآنية التي تقص ما جرى على ألسنة هؤلاء المتهتكات المظهرات ثوب العفة والصلاح.

لقد حكى الله تعالى عنهن ما يفضح رغباتهن الخائنة في أبهى قالبٍ لفظي، حيث حكى عنهن أنهن قلن: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾، اسمع إليهن يقلن: ﴿فَتَىٰهَا﴾، فلماذا اخترن هذا الوصف لذاك الشاب؟ إنه التهكم منهن عليها للتفاوت العمري بينها وبينه، فكأنهن قلن: على الرغم من أنها أكبر منه إلا أنها ما زالت تصر على مراودة فتىً أصغر منها، وفوق ذلك فهو بمنزلة خادمها، فهو (فَتَىٰهَا)) أو هو بمثابة ابنها، فهذه الكلمة العجيبة (فَتَىٰهَا) تحتمل المعنين أن يردن بذلك (ابنها أو خادمها الصغير)، وعلى كلا الاحتمالين، فكيف تصنع بنفسها ذلك فتراود من هذه حاله ؟

هكذا دارت أحاديثهن، فهل هذا الكلام منهن قد جرى على أساسٍ من الإنكار والاستنكار؟ أم هو أن ألسنتهن عكست شهوةً باطنةً في أنفسهن يردن من خلال الفضول ومجالس الاغتياب إطفاء جوع الفضول، وإخماد ما يتأجج فيهن من السُّعار؟

1- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – العلمية (4/ 34) .

والأمر لم يتم، فهن لسن وَرِعاتٍ وَتَقِيَّاتٍ حتى يذكرن كلماتٍ قلائل ويصمتن، بل إن الله أراد بهذه البلاغة القرآنية الفريدة أن يبين مقدار الثرثرة التي انثالت منهن من خلال قولهن: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾، فماذا بعد ؟

لقد حكى الله تعالى عنهن أنهن قيدن المراودة له بأنها ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾، وهو تحديدٌ شديدٌ منهن لمراد هذه المرأة من المراودة، فهي تريد إتيان الفاحشة، ولكن السؤال يبقى مطروحًا: هل ذلك أيضًا إخبارٌ عن فضولهن وتلهفهن على طريقة صحافة الإغراء التي يتلهف مرضى النفوس على البحث عنها؟ هل كنَّ يردن أن يرين هذا الجسد الذي شغل عقل امرأة العزيز وقلبها فشغل عقولهن وقلوبهن معها؟

وبذلك ترى أن البلاغة القرآنية المعجزة قد بينت أن قول الله تعالى حكايةً عنهن: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ قد جمع من الثرثرة والترترة والبربرة ما يتوقع حدوثه في مجالس اللهو والفراغ، وهذه العبارة تبين أن ما صدر عنهن إنما هو تَعَجُّبٌ شَكْلِيٌّ وَإِنْكَارٌ صُورِيٌّ مِن جِهَاتٍ أَرْبَع:

الجهة الأولى: كَوْنُ الْمُتَحَدَّثِ عَنْهَا امْرَأَةَ عَزِيزِ مِصْرَ وَزِيرِ الْمَلِكِ الْأَكْبَرِ فِي عُلُوِّ مَرْكَزِهَا.

الجهة الثانية: كَوْنُهَا تُهِينُ نَفْسَهَا وَتُحَقِّرُ مَرْكَزَهَا بِأَنْ تَكُونَ مُرَاوِدَةً لأحدٍ من الناس، وَشَأْنُ مِثْلِهَا –إِنْ سَخَتْ بِعِفَّتِهَا– أَنْ تَكُونَ مُرَاوَدَةً عَنْ نَفْسِهَا، لَا مُرَاوِدَةً لِغَيْرِهَا.

الجهة الثالثة: أَنَّ الَّذِي تُرَاوِدُهُ عَنْ نَفْسِهِ هُوَ فَتَاهَا وَرَقِيقُهَا.

الجهة الرابعة: أَنَّهَا بَعْدَ أَنِ افْتُضِحَ أَمْرُهَا وَعَرَفَ بِهِ سَيِّدُهَا وَزَوْجُهَا، وَعَامَلَهَا بِالْحِلْمِ، وَأَمَرَهَا بِاسْتِغْفَارِ رَبِّهَا، لَا تَزَالُ مُصِرَّةً عَلَى ذَنْبِهَا، مُسْتَمِرَّةً عَلَى مُرَاوَدَتِهَا، وَهُوَ مَا أَفَادَهُ قَوْلُهُنَّ: (تُرَاوِدُ) –وَهُوَ الفِعْلُ الْمُضَارِعِ–[1] الذي يدل على أمرين:

1- تفسير المنار (12/ 240) .

الأول: الاستحضار لتلك الْحَالَةِ الْعَجِيبَةِ التي ما تزال امرأة العزيز تقع فيها، فهو أشبه بالنقل المباشر لِقَصْدِ الْإِنْكَارِ عَلَيْهَا في أَنْفُسِهِنَّ، وَلَوْمِهَا عَلَى صَنِيعِهَا ظاهريًّا مع أن السياق يدل على شدة شوقهن لرؤية الواقعة، والمشاركة في تلك المصيبة الباقعة.

والثاني -مما يفيده الفعل المضارع-: الإعلام بأنها مستمرةٌ في غيها قد تحكمت شهوتها بها.

بشاعة ثياب التزوير، وشناعة كذب الشهوانيين:

أيتها الكاذبات:

ما هذه اللهجة المستنكرة؟!! هل ما تقلنه استنكارٌ؟ أم تلهفٌ ومتابعةٌ للأخبار؟ أم هي رغبة في المعاينة وكشف مزيد من الأسرار؟ أم هي شهوة عارمة لهتك الأستار؟

إنه "الاستنكار الذي تبدو فيه غيرة النسوة من امرأة العزيز أكثر مما يبدو فيه استنكار الفعلة!"[1]، وبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبح منظر هؤلاء المتشبعين بما لم يعطوا حيث يكون منهم من يزعمون الإنكار وهم يريدون المشاركة في أفعال الفجار، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلاَبِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ))[2]. وقد قال الرافعي: "الرذيلة الصريحة رذيلة، ولكن الفضيلة الكاذبة رذيلتان". وأبشع أنواع الرذيلة تلك التي ترتدي ثوب الفضيلة..

ولعل إضافة هذه الفئة من المجتمع إلى المدينة بينما أضاف الأمر عند ذكر مجيء إخوة يوسف إلى القرية ليدل على شيوع الانحلال المدني إن لم يقم على نور من الله، وهدى من شرعه، وفي حالة طلب إخوة يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام أن يسأل أهل القرية لدلالة القرية على الصدق والبساطة، وهم أرادوا بطلبهم أن يظهر صدقهم، على

1- في ظلال القرآن (4/ 1955) .
2- البخاري عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها.

عكس الإضافة إلى المدينة حيث تظهر الآثار القاتلة للترف والعبث.

القضية الثانية: اسمع حديثهن: قلن: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ (يوسف: 30)، فهن يذكرن أن حب الفتى لم يعد في مقدور هذه المرأة دفعه، فقد وصل إلى شَغَاف قلبها فدخل تحته، حتى غلب على قلبها، فلا تحكم لها به.

وهنا يتساءل السامع: أهذا الذي يذكرنه رثاءٌ لها، أم نقدٌ وذمٌّ لحالها؟ "فشَغَاف القلب": هو حجابه وغلافه الذي هو فيه، فعن الضحاك قال في معنى كلامهن: هو الحب اللازق بالقلب، فانظر لهذا التعبير العجيب في تغلغل حبه في قلبها:

فالشَّغَافُ: جِلْدَةٌ مُحِيطَةٌ بِالْقَلْبِ يُقَالُ لَهَا غِلَافُ الْقَلْبِ. أو هو -كما يقول الزجاج-: حَبَّةُ الْقَلْبِ وَسُوَيْدَاءُ الْقَلْبِ، فَقَوْلُهُنَّ: ﴿شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أَيْ دَخَلَ الْحُبُّ الْجِلْدَ حَتَّى أَصَابَ الْقَلْبَ دلالة على تمكنه منها، وتحكمه بها، أو اخْتَرَقَ حُبُّهُ شَغَافَ قَلْبِهَا أَيْ: غِلَافَهُ الْمُحِيطَ بِهِ، وَغَاصَ فِي سُوَيْدَائِهِ، فَمَلَكَ عَلَيْهَا أَمْرَهَا، حَتَّى إِنَّهَا لَا تُبَالِي مَا يَكُونُ مِنْ عَاقِبَةِ تَهَتُّكِهَا، وَاللَّائِقُ بِمَقَامِهَا الْكِتْمَانُ وَمُكَابَرَةُ الْوِجْدَانِ.

والمعنى الثاني لهذه الجملة التصويرية لحالة المرأة: أَنَّ حُبَّهُ أَحَاطَ بِقَلْبِهَا مِثْلَ إِحَاطَةِ الشَّغَافِ بِالْقَلْبِ، وَمَعْنَى إِحَاطَةِ ذَلِكَ الْحُبِّ بِقَلْبِهَا هُوَ: أَنَّ اشْتِغَالَهَا بِحُبِّهِ صَارَ حِجَابًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ كُلِّ مَا سِوَى هَذِهِ الْمَحَبَّةِ، فَلَا تَعْقِلُ سِوَاهُ، وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهَا إِلَّا إِيَّاهُ، أَوَ وصَلَ حُبُّهُ إِلَى سُوَيْدَاءِ قَلْبِهَا، فهذا تعبيرٌ عن الْحُبِّ الشَّدِيدِ وَالْعِشْقِ الْعَظِيمِ حتى أهلكها حبًّا، وهو غمزٌ من جهة، والتماس عذرٍ لغاية خبيثة من جهة أخرى، وحالهن في كلامهن الذي تصوره العبارة القرآنية تصويرًا عجيبًا كقول مجنون ليلى:

أرى سقما في الجسم أصبح ثاويًا وحــزنًا طويلًا رائحًا ثم غاديا
ونادى منادي الحب أين أسيرنا؟ لَعلَّـكَ مَـا تَـزْدَادُ إلاَّ تمَادِيَـــا

القضية الثالثة: إصدار الحكم النهائي على فعل امرأة العزيز[1]:

أصدر إعلام الإثارة الصادر عن نساء المجتمع المنحل المترف الحكم الذي يُظهره السياق القرآني حاملًا غريزة الفضول والاستطلاع واللقاء بأبطال الخبر بصورةٍ أكثر مما يدل على الصدق والتنديد في التحليل ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ (يوسف)، أيْ: إِنَّا لَنَرَاهَا بِأَعْيُنِ بَصَائِرِنَا وَحُكْمِ رَأْيِنَا غَائِصَةً فِي غَمْرَةٍ مِنَ الضَّلَالِ الْبَيِّنِ الظَّاهِرِ الْبَعِيدِ عَنْ مَحَجَّةِ الْهُدَى وَالصَّوَابِ لرضاها لنفسها بعد عز السيادة بالسفول إلى دَرَكِ الخيانةِ للزوجية، ورذالة الإهانة بمعاقرة الشهوة المحرمة. وَالضَّلَالُ هُنَا: مُخَالَفَةُ طَرِيقِ الصَّوَابِ، أَيْ: هِيَ مَفْتُونَةُ الْعَقْلِ بِحُبِّ هَذَا الْفَتَى، وَلَيْسَ الْمُرَادُ الضَّلَالَ الدِّينِيَّ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى آنِفًا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ (سُورَة يُوسُف) [2].

1- وانظر: بلاغة القص في القرآن الكريم وآفاق التلقي ص100 (ضمن سلسلة كتاب الأمة) .
2- التحرير والتنوير (12/ 261) .

المشهد الخامس عشر

خطة المكر الأنثوية المضادة في مغامرات عابدات الشهوات

انتشر خبر امرأة العزيز إلى نساء من قومها سريعًا، ويبدو أنه وصل إليها خبر كلامهن ومكرهن بصورة أسرع، وصوَّر هذا المعنى في كتاب الله تعالى مجيء الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ (يوسف: 31)، وما وراء السطور والكلمات في قول هؤلاء المترفات بادٍ للسامعين والسامعات اللواتي لا أهداف حقيقية في حياتهن إلا قصص اللهو وأحاديث المستهترين والمستهترات، وقد وصف ذلك الطبري –رحمه الله– فبين أن قيلهنّ ما قلن من ذلك، وتحدُّثهن بما تحدَّثن به من شأنها وشأن يوسف، مكرًا منهن فيما ذكر لتريهُنَّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد بدأت شهوة السوء تتملكهن، فأَرَدْنَ بِذَلِكَ أَنْ يَبْلُغَ قَوْلُهُنَّ إِلَيْها فَيُعْرِيَهَا بِعَرْضِهَا يُوسُفَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– عَلَيْهِنَّ فَيَرَيْنَ جَمَالَهُ؛ لِأَنَّهُنَّ أَحْبَبْنَ أَنْ يَرَيْنَهُ، كأنهن أَضْمَرْنَ حَسَدَهَا عَلَى اقْتِنَاءِ مِثْلِهِ، وعلمن أنها إذا سمعت بحديثهن فإنها ستعرض يُوسُفَ عَلَيْهِنَّ لِيَتَمَهَّدَ عُذْرُهَا عِنْدَهُنَّ، فَهُنَّ مَا قُلْنَ هَذَا إِنْكَارًا لِلْمُنْكَرِ وَكُرْهًا لِلرَّذِيلَةِ، وَلَا حُبًّا فِي الْمَعْرُوفِ وَنَصْرًا لِلْفَضِيلَةِ، وَإِنَّمَا قُلْنَهُ مَكْرًا وَحِيلَةً، لِيَصِلَ إِلَيْهَا فَيَحْمِلُهَا عَلَى دَعْوَتِهِنَّ، وَإِرَاءَتِهِنَّ بِأَعْيُنِ أَبْصَارِهِنَّ مَا يُبْطِلُ مَا يَدَّعِينَ رُؤْيَتَهُ بِأَعْيُنِ بَصَائِرِهِنَّ، فَيَعْذُرْنَهَا فِيمَا عَذَلْنَهَا عَلَيْهِ[1].. إنه مَكْرٌ شديد، لَا نصح رشيد، وذلك هو عين ما حدث، ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ وَكَانَ مِنَ الْمُتَوَقَّعِ أَنْ تَسْمَعَهُ لِمَا اعْتِيدَ بَيْنَ هَذِهِ الْبُيُوتِ مِنَ التَّوَاصُلِ بِالزِّيَارَاتِ، وَاخْتِلَافِ الْخَدَمِ بين البيوتات، وَهُنَّ مَا قُلْنَهُ إِلَّا لِتَسْمَعَهُ، فَإِنْ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهَا عَفْوًا احْتَلْنَ فِي إِيصَالِهِ قَصْدًا، فَكَانَ مَا أَرَدْنَهُ، ولاحظ الفعل في (سَمِعَتْ) فإن المعتاد فيه أَنْ يُعَدَّى إِلَى الْمَسْمُوعِ بِنَفْسِهِ، ولكنه هنا تعدى بالباء ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ فقد تكون تعدية الفعل بالباء لِأَنَّهُ ضُمِّنَ مَعْنَى أُخْبِرَتْ، كَقَوْلِ الْمَثَلِ: «تَسْمَعُ بِالْمُعِيدِيِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ» أَيْ: تُخْبَرُ عَنْهُ، وَقد تَكُون الْبَاءُ مَزِيدَةً لِلتَّوْكِيدِ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ (سُورَة الْمَائِدَة: 6)[2]، والذي يظهر أن الله

1- تفسير المنار (12/ 240) .
2- التحرير والتنوير (12/ 261) .

تعالى أراد أن يبين معنيين في هذا الكلام الوجيز:

المعنى الأول: أنها سمعت مكرهن من الحديث الذي يدور بين ساكني تلك القصور.

والمعنى الثاني: أنها أُخبرت به إما لأنها استخبرت من سمعته ينقل الحديث لتتأكد، وإما لأنهن حرصن على إيصال ذلك إليها، وهذان المعنيان يدل عليهما هذا التركيب الوجيز: ﴿سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾.

يا لدهاء هذه المرأة.. ولكنه دهاء لا يفيء إلى خير، أو يقوم على نشر النافع للناس، بل على التآمر والهدم، ونشر الرذائل المجتمعية.. لقد فَطِنَتْ أسيرة ذنوبها وشهواتها بما تخبئه هؤلاء النساء من الفضول المستعر، والشهوات المخبأة خلف عبارات الاستنكار، فأرادت أن تشركهن في حمأة المجون، ومهرجانات العفن ومواقف الفتون، وأن تبين ليوسف في الوقت ذاته أن المجتمع حوله يمتلئ بهذا الإغواء ليكف عن الاستعصام ويستسلم للأهواء، ولذلك ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ لأنهن لم يتذوقن طعم الإيمان، وحقيقة الطهارة، وجمال مبدأ ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (يوسف).

عندها أعدت خطتها الماكرة: ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾، فقد أرسلت إليهن لِتَجْمَعَهُنَّ بِهَذَا الشابُّ الَّذِي فَتَنَهَا جَمَالُهُ، وَأَذَلَّهَا عَفَافُهُ وَكَمَالُهُ، حَتَّى رَاوَدَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ وَهُوَ فَتَاهَا، وَدَعَتْهُ إِلَى نَفْسِهَا فَرَدَّهَا وَأَبَاهَا، خَشْيَةً وَطَاعَةً لِلَّهِ، وَحِفْظًا لِأَمَانَةِ السَّيِّدِ الْمُحْسِنِ إِلَيْهِ، أَنْ يَخُونَهُ فِي أَعَزِّ شَيْءٍ لَدَيْهِ.

وكان من أهدافها في جمعه بهن أن تحاول فتنته بصورةٍ جماعية، فربما إذا رآهن اهتز ثباته واضطرب، ومسه الشيطان بإغرائه، فذلَّ للمعصية وأكل منها وشرب، وظنت أنه ربما صبا إِلَيْهِنَّ، وجذبه مِنْ جَمَالِهِنَّ الطَّارِئِ الْمُفَاجِئِ لَهُ، مَا لَمْ يَجْذِبْهُ مِنْ جَمَالِهَا الَّذِي أَلِفَهُ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ[1].

1- تفسير المنار (12/ 239) .

المتكأ: محل الغفلة الخادعة

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ (يوسف: 31) دَعَتْهُنَّ إِلَى الطَّعَامِ فِي دَارِهَا، وَمَكَرَتْ بِهِنَّ كَمَا مَكَرْنَ بِهَا، بِأَنْ أَعَدَّتْ وَهَيَّأَتْ لَهُنَّ متكًا، وَالْمُتَّكَأُ: مَحَلُّ الِاتِّكَاءِ، وَالِاتِّكَاءُ: جَلْسَةٌ قَرِيبَةٌ مِنَ الِاضْطِجَاعِ عَلَى الْجَنْبِ مَعَ اعتدال قَلِيل ارتفاعًا نحو الْأَعْلَى، أي الْمَيْل فِي الْقُعُودِ مُعْتَمِدًا عَلَى أَحَدِ الشِّقَّيْنِ، ففيه التَّمَكُّنُ بِالْجُلُوسِ عَلَيْهِ أَوِ الِاعْتِمَادُ عَلَيْهِ بِالْيَدِ أَوِ الْيَدَيْنِ، مع وجود النمارق والوسائد المساعدة على الراحة في الاتكاء، كقوله تعالى في صِفَةِ الْجَنَّةِ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾(الكهف:31)،﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾﴾(الزخرف) يُقَالُ: اتَّكَأَ: إِذَا أَسْنَدَ ظَهْرَهُ أَوْ جَنْبَهُ إِلَى شَيْءٍ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِ، وَكُلُّ مَنِ اعْتَمَدَ عَلَى شَيْءٍ فَقَدِ اتَّكَأَ عَلَيْهِ[1]، وَإِنَّمَا يَكُونُ الِاتِّكَاءُ إِذَا أُرِيدَ إِطَالَةُ الْمُكْثِ وَالِاسْتِرَاحَةِ، فأعدت لهن مَا يَتَّكِئْنَ عَلَيْهِ إِذَا جَلَسْنَ مِنَ الْكَرَاسِيِّ وَالْأَرَائِكِ والنمارق وَهُوَ الْمُعْتَادُ فِي دُورِ الْكُبَرَاءِ، وَكَانَ أَهْلُ التَّرَفِ يَأْكُلُونَ مُتَّكِئِينَ كَمَا كَانَتْ هذه عَادَةً لِلرُّومَانِ، وَلَمْ تَزَلْ أَسِرَّةُ اتِّكَائِهِمْ مَوْجُودَةً فِي دِيَارِ الْآثَارِ[2].

وهذه الداهية الداعية لهن قد أعدت المتكأ لهن في حجرة مَائِدَةِ الطَّعَامِ، فهو متكأٌ جميلٌ فاخرٌ مع أنواع الأكل الخالب الباهر الآسر، والمائدة العامرة المصحوبة بالسكاكين التي تساعد على الترفه في أكلٍ لا يوجد إلا عند أولي النعمة، وَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا لِيَقْطَعْنَ بِهِ مَا يَأْكُلْنَ مِنْ لَحْمٍ أَوْ فَاكِهَةٍ، وهذا التفصيل واضحٌ من قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ (يوسف:31)، وَمَعْنَى "آتَتْ": أَمَرَتْ خَدَمَهَا بِالْإِيتَاءِ كَقَوْلِهِ:﴿يَٰهَـٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى﴾(سُورَة غَافِر:36) أي أشرف على البنائين والعمال ليقوموا ببناء صرحٍ لي.

فالله تعالى –كما يقول الطبري محللًا تفاصيل تختبئ خلف هذه الكلمات البالغات البليغات–: "أخبر عن إيتاء امرأة العزيز نسوةَ السكاكينَ، وترك ما لَهُ آتتهن السكاكين، إذ كان معلومًا أن السكاكين لا تدفع إلى من دعي إلى مجلس إلا لقطع ما يؤكل إذا قطع بها. فاستغني بفهم السامع بذكر إيتائها صواحباتها السكاكين، عن ذكر ما له آتتهن ذلك،

1- تفسير المنار (12/ 241) .
2- التحرير والتنوير (12/ 262) .

فكذلك استغني بذكر اعتدادها لهنّ المتكأ، عن ذكر ما يعتدُّ له المتكأ مما يحضر المجالس من الأطعمة والأشربة والفواكه وصنوف الالتهاء لفهم السامعين بالمراد من ذلك".

ولأن الأكل حال الاتكاء يدل على الترف البالغ، والغفلة المسترسلة فقد كرهه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الدنيا؛ لأسباب صحية، وتربوية، ونفسية، فعن أبي جُحَيْفَةَ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: ((لاَ آكُلُ مُتَّكِئًا))[1].

وهو -صلى الله عليه وسلم- كما قال العراقي:

ولـم يكـنْ جلوسـه متكيـاً في حالـة الأكل ولكن مقعيًا

ومع هذه الاستراحة الوثيرة في الجلسة والفعل تكون المفاجأة التي تبغتهن، فقد أمرت امرأة العزيز يوسف -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- بالخروج لتجعل تفكيرهن كبحرٍ مضطرب يرتفع ويموج، فماذا حدث حينها؟ وكيف صار يوسف -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- مثال الثبات أمام إغواء هذه المرأة وتزيينها.

1- البخاري.

المشهد السادس عشر

بين الهوى والعقل: الاستسلام لعبادة الصور

أصدرت امرأة العزيز أمرها ليوسف –عليه الصلاة والسلام– بالخروج عليهن: ﴿وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّ﴾ (يوسف:31)، وهذا يقْتَضِي أَنَّهُ كَانَ فِي بَيْتٍ آخَرَ، وَكَانَ لَا يَدْخُلُ عَلَيْهَا إِلَّا بِإِذْنِهَا، ولعله ما كان يعلم بما سيدخل عليه؛ إنما دخل أحد أمكنة القصر العامة؛ إذ لا يدخل ذلك المكان إلا وقد غلب عليه الاطمئنان من مكرها، وَعُدِّيَ فِعْلُ الْخُرُوجِ بِحَرْفِ (عَلَى) لِأَنَّهُ ضُمِّنَ مَعْنَى (ادْخُلْ)؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ دُخُولُهُ عَلَيْهِنَّ لَا مُجَرَّدَ خُرُوجِهِ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ فِيهِ[1]، أي اخرج وادخل عليهن ذلك المكان العام، فكأنه كان في بيت آخر لعله أشار على العزيز أن يبعده فيه اتقاء لشر تلك المرأة ومكرها، ودبرت لهن متكأ قريبًا من مكانه، وباغتته حينها فطلبت منه الخروج على ضيفانه، وهو لا يعلم بمكرها، فقد مكرت به وبهن، فامتثل ما أمرته به كما هو دأبه معها في كل ما لا معصية فيه، وبادر بالخروج عليهن[2].

والآية تدل على أمرٍ في غاية الإحسان والإخلاص عند هذا الشابِّ المكرَّم الطيب الأنفاس، فإن اشتياق هؤلاء النسوة لرؤيته يدل على أن الشابُّ كان منذ دخل القصر يتقي أن يلتقي بالنساء، أو أن يظهر على من قد تورثه صحبتُه الذنب والبأساء والشقاء، كما تدل الآية على أن المرأة راودته أول ما بلغ أشده ولم تنتظر أكثر من ذلك؛ ذلك أنها لو انتظرت أكثر لكانت هؤلاء النسوة الماكرات بطبيعة المخالطة قد رأينه، فعدم رؤيتهن له يدل على أن مراودة امرأة العزيز له كانت عند بلوغ أشده مباشرة، وأن الشابُّ من صدقه وإخلاصه كان يتقى مواقع الشبه، والاختلاط بالنساء.

1- التحرير والتنوير (12/ 262) .
2- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – العلمية (4/ 35) .

يا نبي الله أيها المكرم.. يوسفُ أيُّها الصِّدِّيق المصدق، المخلِص المخلَص، التقي النقي:

كل هذه السنوات التي عشتها فيها في هذا المجتمع الجاهلي الممتلئ بالدنس وأنت تتقي أن تراك أمثالُ هؤلاء العابثات.. أي صدقٍ تكتنزه في صدرك؟ **وكيف حميت نفسك من مواطن الشبهات، ومزلة الأقدام، ومدحضة عزائم عظماء الأقوام؟.. أي عملٍ مخلص تباهي به الملائكة والصالحين؟ ألا إن صلوات الله الطيبات، وتسليماتِه المباركات، تغشاك يا إمام الطهر والنقاء، والعفة والبهاء.**

وهنا نعلم لماذا وصف الله تعالى طفولة يوسف بما يشتاق كبار القانتين أن يوصفوا به حينما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾ (يوسف).

سقوط العقول وتقطيع الفؤاد الذهول:

ماذا حدث عندما أخذتهن روعة المفاجأة؟ ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ أَيْ: أَعْظَمْنَ جَمَالَهُ وصفاء وجهه، وأدهشهن حسنُه وتفاصيل قامته، فَالْهَمْزَةُ فِي قوله: ﴿أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ لِلْعَدِّ، أَيْ أَعْدَدْنَهُ كَبِيرًا، وَأُطْلِقَ الْكِبَرُ عَلَى عَظِيمِ الصِّفَاتِ تَشْبِيهًا لِوَفْرَةِ الصِّفَاتِ بِعِظَمِ الذَّاتِ[1]..

لقد دَهِشْنَ لِذَلِكَ الْحُسْنِ الرَّائِعِ، وَالْجَمَالِ الْبَارِعِ، وَغِبْنَ عَنْ شُعُورِهِنَّ بما آتاه الله من الحسن الكامل حتى قِيلَ في وصف حسنه: كَانَ يُوسُفُ إِذَا سَارَ فِي أَزِقَّةِ مِصْرَ يُرَى تَلَأْلُؤُ وَجْهِهِ عَلَى الْجُدْرَانِ كَمَا يُرَى نُورُ الشَّمْسِ مِنَ السَّمَاءِ عَلَيْهَا[2]. وهذا الزعم وإن لم يثبت عليه دليل إلا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصفه بما يقرب من ذلك حيث رآه ليلة الإسراء: ((فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ –صلى الله عليه وسلم– إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ، فَرَحَّبَ

1- التحرير والتنوير (12/ 264) .
2- تفسير الرازي18 /449.

وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ))[1]. وقد زعم كعب الأحبار في وصفه ليوسف عليه السلام بأنه كان حسن الوجه، جعد الشعر، ضخم العينين، مستوي الخلق، أبيض اللون، غليظ الساقين والساعدين والعضدين، خميص البطن، صغير السرة، وكان إذا ابتسم رأيت النور في ضواحكه، وإذا تكلم رأيت في كلامه شعاع النور ينبهر بين ثناياه، ولا يستطيع أحدٌ وصفه، وكان حسنه كضوء النهار عند الليلِ[2].

والذي يظهر أن مجرد الحسن في الجسد والكمال في الوجه لا يؤدي إلى هذه الحالة الفريدة التي حدثت لهن، ولكن الذي يؤدي إلى تلك الحالة هو أن يجتمع الكمال الإنساني في الجمال الجسدي مع آثار الجلال والاحتشام، ويجتمع الحسن في الوجه والقوام مع مَهَابَة الاستقامة والالتزام، ومن ذلك أنه لم يكترث لهن، ولم يلتفت التفات ريبة نحوهن، فاقترن هذا الْجَمَالُ الْعَظِيمُ بِتِلْكَ الْهَيْئَةِ الفخيمة ذات الهيبة العظيمةِ[3].

عندها أخذ هذا المنظر المدهش ألبابهن، وسلب عقولهن وأبصارهن، فحدث منهن ما لا يتوقع حدوثه، حيث قال الله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ (يوسف: 31).. كيف ذلك؟

سيدي علِّلِ الفؤادَ العليلا واحْيني قبل أن تراني قتيلا

إن تكن عازمًا على قتل روحي فترفَّقْ بها قليلًا قليلا

ياللهول! جعلن يقطعن أيديهن حزًّا حزًّا بالسكاكين التي معهن، ما يعقلن شيئًا مما يصنعن، فقد كانت في أيديهن سكاكين مع الطعام سواء أكان فاكهة أم لحمًا، فقطعن أيديهنّ، بَدَلًا مِنْ تَقْطِيعِ مَا يَأْكُلْنَ، ذُهُولًا عَمَّا يَعْمَلْنَ، بِأَنِ اسْتَمَرَّتْ حَرَكَةُ السَّكَاكِينِ الْإِرَادِيَّةُ بَعْدَ فَقْدِ الْإِرَادَةِ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ قَبْلَ فَقْدِهَا، وَبدلًا من أن تقع السكاكين على

1- مسلم.
2- تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (5/ 204) .
3- تفسير الرازي 18 /449.

الأكل وَقَعَتْ عَلَى أَكُفِّ شَمَائِلِهِنَّ، وَقَدْ سَقَطَ مِنْهَا مَا كَانَ فِيهَا مِنِ اسْتِرْخَائِهَا بِذُهُولِ تِلْكَ الدَّهْشَةِ، وسالت الدماء، وتضعيف حرف الطاء في قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَ﴾ يدل على التكثير، فكأن السكين كانت تقع على يد إحداهن فتجرحها فترفعها عن يدها بطبعها، ثم يغلبها الدهش فتقع على موضعٍ آخر من يدها، فتقطعها مجددًا، وهذا الْقَطْعُ قطع جَرْحٍ أُطْلِقَ فِيهِ لَفْظُ بَدْءِ الشَّيْءِ عَلَى غَايَتِهِ، فأُرِيدَ بِالْقَطْعِ الْجَرْحُ وليس القطع الكامل، وذلك لِلْمُبَالَغَةِ فِي شِدَّتِهِ حَتَّى كَأَنَّهُ قَطَعَ قِطْعَةً مِنْ لَحْمِ الْيَدِ[1].

والظَّاهِرُ أَنَّ مُضَيِّفَتَهُنَّ تَعَمَّدَتْ جَعْلَ السكاكين مَشْحُوذَةً فَوْقَ الْمَعْهُودِ فِي سَكَاكِينِ الطَّعَامِ مُبَالَغَةً فِي مَكْرِهَا بِهِنَّ؛ لِتَقُومَ لَهَا الْحُجَّةُ عَلَيْهِنَّ بِمَا لَا يَسْتَطِعْنَ إِنْكَارَهُ[2]، وربما لم تتصور هي ذاتها أن تحدث هذه الحركة الرهيبة اللاإرادية منهن، وإنما غاية أمرها أنها كانت تريد أن توصلهن إلى نتيجة هي أن يقلن لها عند ذلك: كيف نلومك على حبّ هذا الشاب، ونحن قد قطعنا أيدينا وسالت الدماء!.

وتابع المشهد لترى أنهن وهن يقطعن أيديهن أو بعده نطقن نطق المدهوش المصعوق، ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ وهذا تَرْكِيبٌ عَرَبِيٌّ جَرَى مَجْرَى الْمَثَلِ، يُرَادُ مِنْهُ إِبْطَالُ شَيْءٍ عَنْ شَيْءٍ وَبَرَاءَتُهُ مِنْهُ، وَأَصْلُ (حَاشَا) فِعْلٌ يَدُلُّ عَلَى الْمُبَاعَدَةِ عَنْ شَيْءٍ، فهي كلمة تفيد معنى التنزيه، والمعنى هاهنا تَنْزِيهُ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْعجزِ أن يخلق مثل هذا الخلق الذي لا يقدر عليه سواه، فالتعجب منهن لرؤيتهن قدرةً عظيمة لله حَيْثُ بلغت قدرته العظيمة أن يخلق جميلًا عفيفًا مثل هذا الشاب.

عبادة الصور أساس المعاصي في العشي والبُكر، وأصل اختراق الشيطان لمكامن الحذر:

وهاهنا تستبين لنا **صورةٌ** واضحة عن سببٍ من أهم أسباب الإغواء في الحياة البشرية هو عبادة الصور، فلأنهن يعبدن الصور حجبهن ذلك عن رؤية حكمة العلي الكبير المقتدر

1- التحرير والتنوير (12/ 263) .
2- تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (16/ 79) ، تفسير المنار (12/ 241) .

فقلن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف)، أي قلن لا يمكن أن يكون هذا بشرًا؛ لأنهن لم يرين في حسن صورته من البشر أحدًا، فقلن: لو كان من البشر، لكان كبعض ما رأينا من صورة البشر، فقد فاق البشر في الحسن بما يجعله خلقًا آخر، وفي الوقت ذاته لقد أعرض عن الشهوة من غير علةٍ مانعة له مع كونه في غاية القوة وكمال الرجولة، فكأنه قيل: فما هو إن لم يكن بشرًا؟ فقلن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾، وإنما شبهن ما رأينه من الْحُسْنِ الْعَظِيمِ بالملك؛ لِأَنَّهُ استقر في الطِّبَاعِ أَنْ لَا حَيَّ أَحْسَنُ مِنَ الْمَلَكِ، كَمَا رَكَّزَ فِيهَا أَنْ لَا حَيَّ أَقْبَحُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى في صفة شجرة الزقوم: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾(الصَّافَّات)، فَلَمَّا أَرَادَتِ النِّسْوَةُ الْمُبَالَغَةَ فِي وَصْفِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْحُسْنِ شَبَّهْنَهُ بِالْمَلَكِ مع ما هو معروفٌ من تأله الملائكة وتعبدها وارتفاعها عن بواعث المحرمات، وهو الذي ظهر في حياء يوسف -عليه السلام- وعدم التفاته لإغرائهن -ثم من بعدُ- لإغوائهن، وبهذه الكلمات منهن صَارَ حَالُهَا وَحَالُهُنَّ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَبْصَـــرَهُ عَـــاذِلِـي عَـلَيْـــهِ ... وَلَـــمْ يَـكُـــنْ قَبْـلَـهَـــا رَآهُ
فَقَـالَ لِـي لَـوْ عَشِقْـــتَ هَـذَا ... مَـا لَامَـكَ النَّـــاسُ فـــي هَوَاهُ
فَظَـلَّ مِـنْ حَيْـثُ لَيْـسَ يَـدْرِي ... يَـأْمُـرُ بِالْعِشْـــقِ مَـــنْ نَهَـاهُ[1]

فانظر إلى إقرارهن الأنثوي العميق بموقف المرأة التي كن يلغطن بقصتها، ويظهرن الاستنكار لفعلها، وانظر إلى إحساس هذه المرأة بهذا الإقرار الذي يشجعها على الاعتراف الكامل، وهي آمنة في ظل استسلامهن لأنوثتهن.. إنها التربية المجتمعية التي تدور حول مغامرات الشهوات، ومتابعة الصور، والتفكه بالموبقات تصنعها بيئتهن الخاصة وتوجه أنظار الناس نحوها، وانظر بعد ذلك إليهن:

واعجبًا!! يهجمن كلهن على يوسف بالإغراء والإغواء، رغم ما أنطقتهن به الوهلة الأولى من نظافته وطهارته البادية حين قلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[2]

1- تفسير المنار (12/ 242) .
2- في ظلال القرآن (4/ 1955) .

المشهد السابع عشر

استحواذ الشيطان: خطط الماضي إلى المستقبل في الهوان والعصيان

لقد رأت هؤلاء النسوة ما تشوقن إلى رؤيته فقمن يُفصِحن عن مكنون النتن الغريزي الذي لا يُدفَعُ إلا بصدق المجاهدة، وكعادة الشهوانيين الكاذبين ألبسن جورَ الحكم الذي أصدرنه ثيابَ الطهر لغايةٍ دنسةٍ فقلن عند رؤية الكريم ابن الكرماء -عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام-: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾(يوسف).

أيتها السَّكِرات بنيران الشهوة المجرمة تفوهتن بعباراتٍ تنتمي إلى الحق والحقيقة.. وما تردن الله بذلك، ولا طلبتن طهر الملائكة، بل أردتنَّ بقول الحقيقة كلَّ غاية خبيثة صفيقة، ألا تشعرن بالغاية الدنسة تسري في أجسادكن؟ ألا تستطعن ملاحظة الظلمة الشيطانية التي تعتريكن؟ ما لكن أفما تخفن إذا جمعكن الله ليومٍ لا ريب فيه ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ (آل عمران)!!

أسوأ مراحل الهوان: الافتخار بماضي العصيان

لم تتذوق هؤلاء النسوة لذة العمل الصالح.. لم يتلذذن بسعادة معرفة ما للسماء من مفاتح.. لم تمتلئ أنفسهن بجمال الطاعة.. بل ذهبت أوقاتهن عبثًا في بضاعة العبث، وبئست البضاعة..

فبعد أن وُصِفت ردة فعل النساء على رؤية ذلك الشابُّ الطاهر ربما تَسَاءَلَ الْمُتَسَائِلُونَ: مَاذَا قَالَتْ تلك الماكرة لَهُنَّ، وَقَدْ غَلَبَ مَكْرُهَا مَكْرَهُنَّ؟

فجاء الجواب عندما فَهمت هذه المرأةُ -خضراءُ الدِّمَن- ما تريد أنفسهن، وعلمت أنها أوقعتهن في شَرَك الشهوة التي لا يحرر صاحبها إلا بمجاهدة عظيمة يستحق صاحبها

التوفيق بأن يصرف الله عنه السوء والفحشاء.. عند ذلك قامت بآخر أسلوبٍ إغرائيٍّ إرعابي لتصطاد به الكريم الصادق.. ظنت بهذا المشهد أنها قد وجدت سبيلًا لكسر عزيمة الطهور المخلِص المخلَص النبيل الذي تمكن من قلبه حبُّ الملك الخالق الجليل.. فقالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ (يوسف)!.

اسمع إلى الآية الجليلة كيف تكشف وقاحة الرداءة الأخلاقية الجهولة.. وانظر كيف أفصحت الآية عن السعار الشهواني المحموم، والإغراء المتلاقي مع الإغواء، والتهديد المقترن بما يزينه الشيطان من نعيم اللذة العتيد..

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾(يوسف: 32) والفاء في قولها (فذلكن) فاء الفصيحة، و(في) في كلمة (فيه) للسببية، والمعنى: أنهن لما أبدين هذا الإعجاب البالغ به رفعت امرأة العزيز عقيرتها، وجلجلت بصوتها مفتخرةً متحسرةً في الوقت ذاته –كما هي العادة في مثل هذه المواقف– فكأنها قَالَتْ لَهُنَّ مَا يُعْلَمُ شَرْحُهُ مِنْ قَرِينَةِ الْحَالِ حيث جرى التَّنْزِيل على أصل الإِيجَاز وَالإِجْمَال:

إِذَا كَانَ الْأَمْرُ مَا رَأَيْتُنَّ بِأَعْيُنِكُنَّ، وَمَا أَكْبَرْتُنَّ فِي أَنْفُسِكُنَّ، وَمَا فَعَلْتُنَّ بِأَيْدِيكُنَّ، وَمَا قُلْتُنَّ بِأَلْسِنَتِكُنَّ، فَذَلِكُنَّ هُوَ الْأَمْرُ الْبَعِيدُ الْغَايَةِ الَّذِي أقبلتن الآن إليه، ومن قبل أَسْرَفْتُنَّ فِي عَذْلِي عَلَيْهِ، فانظرن إلى أنفسكن: أصابكن كل هذا في رؤيته مرةً، ولنظرةٍ واحدةٍ ذهبت عقولكن وَلَهًا، فأصابكن الذهول. أفلا تنظرن إلى أيديكن ما لها؟ فهو الذي لمتنني في حبي إياه، وشغف فؤادي به في شبابه بعد صباه، فأنتن بِاللَّوْمِ أَحَقُّ، لِأَنّكن بِنَظْرَةٍ وَاحِدَةٍ حدث معكن كل ذلك[1]، فكيف بي وقد تَرَعْرَعَ فِي دَارِي، وَبَلَغَ أَشُدَّهُ أمام سَمْعِي وَإبصاري، فَأَنَا أُشَاهِدُهُ فِي قُعُودِهِ وَقِيَامِهِ، وَيَقْظَتِهِ وَمَنَامِهِ، وَطَعَامِهِ وَشَرَابِهِ، وَحَرَكَتِهِ وَسُكُونِهِ واحتشامه، كأنها تقول لهن: كيف بي وأنا أَخْلُو بِهِ فِي لَيْلِي وَنَهَارِي، فَأَرَاهُ بَشَرًا سَوِيًّا، إِنْسِيًّا لَا جِنِّيًّا، وَجَسَدًا لَا

1- تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (16/ 85) ، تفسير الرازي 18 /450.

مَلَكًا رُوحَانِيًّا، فَأَتَرَاءَى لَهُ فِي زِينَتِي، وَأَعْرِضُ عَلَى نَظَرِهِ مَا ظَهَرَ وَمَا خَفِيَ مِنْ مَحَاسِنِي، فَيُعْرِضُ عَنْهَا احْتِقَارًا، ويبتعد عنها طاعة لربه تنزهًا واصطبارا، فما يزيدني الشيطان له إلا ميلًا، وله إلا إقبالًا يسيل سيلًا، فأكتال من حبه كيلًا، فَأَتَصَبَّاهُ بِكُلِّ مَا أَمْلِكُ مِنْ كَلَامٍ عَذْبٍ يَخْلُبُ اللُّبَّ، وَلِينِ قَوْلٍ وَخُشُوعِ صَوْتٍ يُرَقِّقُ الْقَلْبَ، فَلَا يَصْبُو إِلَيَّ، وَأَمُدُّ عَيْنَيَّ إِلَى مَحَاسِنِهِ فِيهِمَا كُلُّ مَا يُكِنُّهُ قَلْبِي مِنْ صَبَابَةٍ وَشَوْقٍ، مَعَ فُتُورِ جَفْنٍ، وَانْكِسَارِ طَرْفٍ، وَطُولِ تَرْنِيقٍ وَتَحْدِيقٍ، فَلَا يَرْفَعُ إِلَيَّ طَرْفًا، وَلَا يَمِيلُ نَحْوِي عَطْفًا، بَلْ تَتَجَلَّى فِيهِ الرُّوحُ الْمَلَكِيَّةُ بِأَظْهَرِ مَجَالِيهَا، وَالْعِبَادَةُ الْإِلَهِيَّةِ بِأَكْمَلِ مَعَانِيهَا[1].

ثم كشرت عن سفهها، واستسلمت لعماها وعمهها، مبينة أحداث الماضي، فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ (يوسف: 32). وهذا افتخارٌ منها أمامهن بالماضي وبما حدث ووقع، مع الشكوى أنه تعفف وامتنع، فانظر كيف عبر القرآن بدقةٍ عن كلماتٍ كثيرةٍ ألقت بها.

فقالت: (فاسْتَعْصَمَ)، وهذا الفعل مُبَالَغَةٌ فِي (عَصَمَ نَفْسَهُ)، فَالسِّينُ وَالتَّاءُ لِلْمُبَالَغَةِ، مِثْلَ: اسْتَمْسَكَ وَاسْتَجْمَعَ الرَّأْيَ وَاسْتَجَابَ. فَالْمَعْنَى: أَنَّهُ امْتَنَعَ امْتِنَاعَ مَعْصُومٍ، أَيْ جَاعِلًا الْمُرَاوَدَةَ خَطِيئَةً عَصَمَ نَفْسَهُ مِنْهَا[2].

مهرجانات الشيطان للإجبار على ممارسة الإثم والعدوان:

ثم أظهرت المرأة إجرامها مبينةً أنها ستتابع طريق الآثام بلا حسابٍ ولا خوفٍ من ملام فقالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ..﴾ وهذه حال الشهوة المحرمة كلما امتنع منها الطاهرون ألحَّ المجرمون على إدخالهم فيها، فالْمَمْنُوعَ مَتْبُوعٌ، فقد أقض مضجعها الحزن والْحَسْرَة، وَالْأَرَق وَالْقَلَق، ولذا أقسمت أغلظ الأيمان المؤكدة بمسمعه ومسمعهن مبينةً الخطوات المستقبلية أمام هذا الاستعصام المحكم فقالت:

1- تفسير المنار (12/ 243) .
2- التحرير والتنوير (12/ 264) .

﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾(يوسف). انظر انعكاس الأمر، وكيف تصوره البلاغة القرآنية:

هذه المرأة تهدد الشابُّ المُكَرَّمَ مستخدمةً أعظم المؤكدات على تنفيذ ذلك التهديد، فتقول: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ..﴾ انظر إليها كيف أصبَحتْ شيطانًا في جسد إنسان؟ تقول: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ..﴾. الآن لم تعد تقول: لئن لم يفعل ما أرغب فيه أو أطلبه.. بل صيَّرت الفاحشة قانونًا ملزمًا.. صارتْ الفاحشة في نظامها وعلى مسمعٍ من كبار نساء قومِها قانونًا ملزمًا يجب عقاب تاركه، أو علاجه في مكانٍ مناسبٍ ليستعيد وعيه!! ما هذا؟ كيف ارتكست الفطرة وانقلبت عند هؤلاء القوم.. ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ (الحجر)، حقًّا إنهم ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ (البقرة)

ماذا ستفعل به إن لم ينفذ القانون الثقافي!! الملزم الذي فرضته؟ تقول: ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ لقد أصدرت الحكم الذي ستتولى المحاكم تمريره وفق شهواتها، فما هو الحكم؟

أن يُجْمَعَ عليه عقوبتان: السجن، والتعامل المهين المذل فيكون من الصاغرين أَيِ: الْأَذِلَّةِ الْمَقْهُورِينَ، والسلطات التنفيذية والقضائية مجرد تابع للأهواء التي يمليها ذوو النفوذ، وهذه العبارة تخفي وراءها الكثير من العفن في حياة هؤلاء النسوة، كما تدل على الغيظ الذي تعانيه هذه المرأة في سبيل شهوتها المحرمة، فكأنها تقول -كما يرى النسفي-: ليكونن في السجن من الصاغرين مع السُّراق والسُّفاك والأُبَّاق كما سرق قلبي وأبق مني وسفك دمي بالفراق، فلا يهنؤه الطعام والشراب والنوم هنالك كما منعني هنا كل ذلك، ومن لم يرض بمثلي في الحرير على السرير أميرًا صار في الحصير على الحصير حسيرًا[1].

وَهَذه العقوبة التي هددت بها هذا الشابُّ الكريم العظيم أَشَدُّ مِمَّا أَنْذَرَتْهُ أَوَّلًا؛ إِذْ قَالَتْ لِزَوْجِهَا عِنْدَ الْتِقَائِهِمَا بِهِ لَدَى الْبَابِ: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

1- تفسير النسفي - دار النفائس (2/ 185) .

فهُنَالِكَ أَنْذَرَتْهُ أَحَدَ الْعِقَابَيْنِ: سِجْنٌ غَيْرُ مُؤَكَّدٍ، أَوْ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بصيغة النكرة، وقَدْ يَتحقق ذَلِكَ السِّجْنُ الْمُطْلَقُ بِأَخَفِّ صُوَرِهِ وَأَقَلِّهَا، وقد يتمثل الْعَذَابُ الْمُنَكَّرُ بِأَهْوَنِ أَنْوَاعِهِ وَأَلْطَفِهَا، فَذَاكَ بِحَبْسِهِ فِي حُجْرَةٍ مِنَ الدَّارِ، وَهَذَا بِلَطْمَةٍ يَحْتَدِمُ بِهَا مَا فِي خَدَّيْهِ مِنَ الِاحْمِرَارِ، لكنها هُنَا قد فقدت صبرها، وعييت حيلتها فأَنْذَرَتْهُ الْجَمْعَ بَيْنَ العقوبتين، وَأَكَّدَتِ السِّجْنَ بِالْقَسَمِ وَبِنُونِ التَّوْكِيدِ الثَّقِيلَةِ، وَفَسَّرَتِ الْعَذَابَ بِالصَّغَارِ الَّذِي تَأْبَاهُ الْأَنْفُسُ الْكَبِيرَةُ، وَاكْتَفَتْ فِيهِ بِالنُّونِ الْخَفِيفَةِ، وَهُوَ أَشَقُّ عَلَى مِثْلِ يُوسُفَ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ بِالْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ؛ لِأَنَّهَا أَهْوَنُ عَلَى كِرَامِ النَّاسِ مِنَ الْهَوَانِ وَالصَّغَارِ بِاحْتِقَارِ النَّفْسِ[1]، وهي بذلك تخوفه عيشة الذل بعد العز والرفعة والراحة التي يجدها في بيت عزيز مصر، وكبير وزرائها.

وربما أوحى لنا الفرق بين النونين أنها لما كانت مصرةً على سجنه أكدت ذلك بنون التوكيد الثقيلة ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾، ولكنها لم تكن ترجو صغاره؛ حيث إن حبه قد تخلل منها مسلك الروح؛ فلذا أكدت ذلك بنون التوكيد الخفيفة ﴿وَلَيَكُونًا﴾، فهي تصر على زجره وسجنه، لكنها قد تشفق عليه من الهوان والصَّغار، وربما كان الفرق أنها تحدثت عن أمرين:

أمرٍ لها فيه صولة وجولة، وهو السجن فأكدته بنون التوكيد الثقيلة، وأمرٍ لا يد لها فيه، وهو شعوره بالهوان والصغار فأكدته بالخفيفة؛ إذ هو حسب نفسه القوية، فقد يظهر عليها الصغار، ولكن الاعتزاز الذاتي يجعله في رداء سابغ من الاعتزاز والفخار.. ولم لا يعتز برغم عذاب السجن والنبلاء الأباة يقولون:

ضع في يديّ القيد ألهب أضلعـي ... بالسوط ضع عنقي على السكّين
لن تستطيع حصار فكري ساعةً ... أو نـزع إيمـاني .. ونـور يقـيـني
فالنـور في قـلبي وقـلبي في يديْ ... ربّي .. وربّـي نـاصـري ومعيـنـي
سأعيـش معتصماً بحبل عقيـدتي ... وأمـوت مبتسمـاً ليحيـا ديـنـي

1- وفعله صَغِرَ كَتَعِبَ،وأما صغر كضخم فهو خاص بصغر الجسم، ومن الأول قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ (براءة).

وَفِي هَذَا التَّهْدِيدِ مِنْ ثِقَةِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ بِنفوذ سُلْطَانِهَا عَلَى زَوْجِهَا الْوَزِيرِ الْكَبِيرِ عَلَى عِلْمِهِ بِأَمْرِهَا، وَاسْتِعْظَامِهِ لِكَيْدِهَا، مَا حَقُّهُ أَنْ يُخِيفَ يُوسُفَ ليبادر إلى تَنْفِيذِ إِرَادَتِهَا، كما يُثْبِتُ عِنْدَهُ عَدَمَ غَيرَة زوجها عَلَيْهَا، بل ومساعدة السلطات القضائية والتنفيذية على العيش في هذا الجو الدنس، وذلك شَأْنُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتْرَفِينَ عندما لا تضيء حياتهم شريعة رب العالمين [1].

لقد باتت هذه المرأة مع صواحبها في هذا الإصرار على تنفيذ خطط الشيطان في متابعة العصيان كما قال أحدهم:

وكنتُ امرَءًا مِنْ جُنْد إبليسَ فَانْتَهَى بيَ الفسقُ حتَّى صَارَ إبليسُ مِنْ جُنْدِي

فلَوْ ماتَ قبْلي كنتُ أُحْسِنُ بعدَه طـرائـقَ فِسْقٍ ليـسَ يُحْسنُهـا بعـدي

1-تفسير المنار (12/ 244) .

قبل المشهد الثامن عشر

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ (يوسف: 33)

ماذا كان جواب يوسف عليه السلام أمام هذه العاصفة الهوجاء من تبرج الفحش والفحشاء؟ لقد قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ (يوسف).

من الأخطاء المشهورة في التدبر بين محبة السجن ومحبة العافية: أيهما أفضل؟

هذه الآية المباركة من سورة يوسف –عليه السلام– كَثُرَ إيرادُها ضمن فهمٍ غير صحيح في الآونة الأخيرة، حيث يستشهد بها بعض الناس على أن يوسف –عليه السلام– لما ذكر أن السجن أحبُّ إليه أعطاه الله السجن، مع أنه لو سأل الله العافية لعافاه، ويقدمون لذلك بالحديث الذي رواه مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟)) قَالَ: نَعَمْ ، كُنْتُ أَقُولُ اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((سُبْحَانَ اللَّهِ لَا تُطِيقُهُ أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ، أَفَلَا قُلْتَ: اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)) قَالَ: فَدَعَا اللَّهَ لَهُ فَشَفَاهُ[1].

ثم يقولون: البلاء مُوكَّل بالمنطق. ويوردون أثرًا عن يوسف –عليه السلام– أنه لما طال عليه الوقت في السجن قال: يارب جعلتني في السجن طويلًا! فقال الله: أنت سألت السجن فأعطيناك، ولو سألت العافية لعافيناك، ويعنون أنه قد ورد في القرآن على لسان يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾!.

1- مسلم 8 /67.

وممن أشار لذلك قديمًا القشيري حيث قال: "الاختبار مقرونٌ بالاختيار، ولو تمنَّى العافية بدل ما كان يُدعى إليه لعلّه كان يعافى، ولكنه لما قال: {ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ} طولب بصدق ما قال"[1].

وهذا استدراك غريبٌ على يوسف عليه السلام، وسيأتي تفصيل الرد عليه عند إكمالنا لهذا المشهد، ولكننا نشير إلى استدراكٍ أغرب ونحن نتكلم عن مشاهد الاستعصام اليوسفية المدهشة، وقد بلغ الأمر ببعضهم ما ذكره الرازي في تفسيره في قوله تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ حيث ذكر من الأقوال الواردة فيه: أَنَّ الضمير رَاجِعٌ إِلَى يُوسُفَ، وَالْمَعْنَى أَنَّ الشَّيْطَانَ أَنْسَى يُوسُفَ أَنْ يَذْكُرَ رَبَّهُ، وَأَنَّ تَمَسُّكَهُ بِغَيْرِ اللَّهِ كَانَ مُسْتَدْرَكًا عَلَيْهِ، لِأَنَّ مَصْلَحَتَهُ كَانَتْ فِي أَنْ لَا يَرْجِعَ فِي تِلْكَ الْوَاقِعَةِ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، وَأَنْ لَا يَعْرِضَ حَاجَتَهُ عَلَى أَحَدٍ سِوَى اللَّهِ، وَأَنْ يَقْتَدِيَ بِجَدِّهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ حِينَ وُضِعَ فِي الْمَنْجَنِيقِ لِيُرْمَى إِلَى النَّارِ جَاءَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَ: هَلْ مِنْ حَاجَةٍ، فَقَالَ أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا.. فَلَمَّا رَجَعَ يُوسُفُ إِلَى الْمَخْلُوقِ لَا جَرَمَ وَصَفَ اللَّهُ ذَلِكَ بِأَنَّ الشَّيْطَانَ أَنْسَاهُ ذَلِكَ التَّفْوِيضَ، وَذَلِكَ التَّوْحِيدَ، وَدَعَاهُ إِلَى عَرْضِ الْحَاجَةِ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ..

ولا شك أن هذا فهمٌ لا يليق، ووضعٌ للأشياء في غير موضعها.. وحسبك أن تتخيل هذا الاستدراك والفهم على يوسف عليه الصلاة والسلام مع ما ورد من قوله مبينًا للناس التوحيد، والتوكل على رب العبيد: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾ (يوسف).

هل تصل الجرأة إلى أن يُجْعلَ من يُعَلِّم الخلقَ التوحيدَ هو من تستدرك عليه حقائق التوحيد؟ إن الكريم ابن الأكارم –عليهم وعلى نبينا وأنبياء الله أجمعين الصلاة والسلام– لما قال: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ (يوسف: 42) لَمْ يزد على أن يتبع ما أمره الله به من اتخاذ الأسباب

2- تفسير القشيري 2 /183.

مع التوكل والاعتماد على مسببها، وبذا أقيم الكون، وثبتت نواميس السموات والأرض، فاسمع لأسامة بن شريك رضي الله عنه يبين كيف علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأعراب أن يجمعوا بين التوكل على الله وبذل الأسباب، فيروي أن الأعراب قالت: يا رسول الله ألا نتداوى؟ قال: ((نعم يا عباد الله تداووا؛ فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء، أو قال دواء، إلا داءً واحدًا)). قالوا يا رسول الله وما هو ؟ قال ((الهرم))[1]، وعَنْ جَابِرٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَنَّهُ قَالَ: ((لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ، فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))[2]...

لقد فات هؤلاء المتدبرين -وفقهم الله- أن الله حثَّ حثاً عظيماً إلى فعل الأسباب لإعمار الأرض، فندب الناس إلى الشفاعة الحسنة، وقال: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ (النساء: 85)، وأمر بالسير في الأرض ابتغاء فضل الله، لا الجلوس في البيوت والمحاريب، وجعل هذا السير معادلًا للجهاد في سبيل الله فقال سبحانه: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (المزمل: 20)، ونبه إلى أهمية العمل والكسب وعدم الاتكال عليه فقال: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ (يونس)، ويحكي أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يلفت نظر العالم إلى قاعدة عامة هنا فيقول: قال رجل: يا رسول الله أعقلها وأتوكل؟ أو أطلقها وأتوكل؟ قال: ((اعقلها وتوكل))[3].

يوسف عليه الصلاة والسلام لم يزد على أن اتخذ السبب الذي شرع الله تعالى اتخاذه، ولم يعتمد عليه، بل إلى ربه فوض أمره، وعليه اتكل فيما يستقبل من نتائج، ولم يستعجل الخروج لما جاءه رسول الملك في موقفٍ من أعجب مواقف البشرية نبلًا وحلمًا وثقةً بالله واعتصامًا به، وعليه قول القائل:

1- الترمذي (4 / 383) برقم 2038، وقال: "وهذا حديث حسن صحيح"، وصححه الألباني.
2- مسلم (7 / 21) برقم 5871.
3- الترمذي (4 / 668) برقم 2517، وقال: "وهذا حديث غريب" وحسنه الألباني.

أختاه.. يفقد هذا الكون معناهُ لـولا رضانا بما يقضي بـه اللـه
إذا وصلنا بربِّ الكون أنفسَنـا فمـا الـذي في حياة الناسِ نخشاهُ[1]

الحساب على حصائد الألسن.. وما حصاد لسان يوسف إلا الاستعصام

أما أصل الفكرة المذكورة في أن الإنسان محاسبٌ على حصاد لسانه فصحيحٌ؛ فإن اللسان محل المحاسبة خيرًا أو شرًّا كما قال تعالى:﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ (ق)، ويربي النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمته على ضرورة مراقبتها لألسنها، فهي أداة إعمار أو دمار، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: ((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا يَهْوِى بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ))[2]، وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يرى أن تبلغ حيث بلغت يهوى بها في النار سبعين خريفا))[3]، وعنه رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ))[4].

ولكن هذه القضية في جهة، وما قاله الصديق يوسف عليه السلام في جهة أخرى، فإن الكريم ابن الكريم بن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم –عليهم السلام– قد قال أجمل عبارةٍ تنسج على منوالها الأمثال، ولجأ إلى الله تعالى بأفضل ابتهال، وردد أعذب دعاء يصعد إلى الكبير المتعال، وجاءت حروفه لتزين كلمات السادة النبلاء الأطهار في اللجوء إلى العظيم القهار، فجمع بين عَظَمَة العبارة، وجمال الإشارة، وجلال المعنى، وحلاوة المبنى .. فكيف يأتي قومٌ لم يفقهوا جمال المعاني، وألَق المباني ليظنوا بسيدٍ من

1- لعبد الرحمن العشماوي –وفقه الله–.
2- البخاري (8 / 125) برقم 6477.
3- أحمد (2 / 355) برقم 8643، وقال شعيب الأرنؤوط: "صحيح وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين".
4- البخاري (8 / 125) برقم 6478.

سادات المعتصمين بالله من الفتن.. أنه زل أو شَطَنَ؟ حاشاه –عليه وعلى نبينا وعلى أنبياء الله أفضل الصلاة والسلام–.. ومن أظهر ما يوضح لك أن الناسي ذكر ربه هو ساقي الملك الذي نسي أن يذكر ربه أي الملك أن الله قال بعد ذلك: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ (يوسف: 45).

وأما اعتماد هؤلاء في استدراكهم على يوسف عليه السلام[1] على ذلك الأثر فيكفي أن نقول فيه: إنه أثر لا يعرفه أحدٌ من أهل العلم إلا ما كوَّنته الخيالات، ولم توجد له إشارةٌ في كتب الفحول الأثبات من المحدثين والمفسرين والعلماء الثقات.

وأما قولهم: (البلاء موكلٌ بالمنطق)، فصحيح في المعنى ولكنه ليس قاعدة كلية، وهو داخلٌ في قوله –تعالى ذكره–: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ (ق)، كما يدخل في حديث الكلمة التي يهوي بها الإنسان في النار دركات، ويرتفع بها في الجنة درجات، ولكنه بهذا اللفظ لا يصح حديثاً مرفوعاً، وبعضهم صحح وقفه، وفي كل الأحوال فهو لا ينطبق على الحالة اليوسفية المباركة، ولا يساعد السياق على إيقاعه على ذلك الإخبات اليوسفي المدهش حاله مثل حال من حاول أن يزعم أن يعقوب عليه السلام لقن أبناءه العذر في إخفاء أخيهم عندما قال لهم: ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ (يوسف: 13).. كيف يفهم منه ذلك؟ أوليسوا قد أجمعوا أمرهم، وعزموا على تنفيذ كيدهم؟ ثم ما الحرج في أن يُذَكِّرَ أي إنسان ببعض المخاطر التي قد تعرض لصاحبه في الطريق؟

ونعم (البلاء موكل بالمنطق) باعتبار إحصاء السيئات لكنه لا يصنع القدر بذاته، ومن القصص التي ذكرت فيها هذه الكلمة .

1- ألتمس لهم العذر في أنهم ربما لا يشعرون أنهم يستدركون على هذا النبي الكريم صلى الله عليه وعلى نبينا محمد وعلى أنبياء الله أجمعين وسلم تسليمًا كثيرًا.

قال عُبَيْدِ بْنِ شَرِيَّةَ الْجُرْهُمِيّ : إِنِّي نَزَلْتُ بِحَيٍّ مِنْ قُضَاعَةَ ، فَخَرَجُوا بِجَنَازَةِ رَجُلٍ مِنْ بَنِي عُذْرَةَ يُقَالُ لَهُ : حُرَيْثٌ ، وَحَرَجْتُ مَعَهُمْ ، حَتَّى إِذَا وَارَوْهُ فِي حُفْرَتِهِ ؛ تَنَحَّيْتُ جَانِبًا عَنِ الْقَوْمِ وعيناني تَذْرِفَانِ بِالْبُكَاءِ ، ثُمَّ تَمَثَّلْتُ بِأَبْيَاتٍ مِنَ الشِّعْرِ كُنْتُ أَرْوِيهَا قَبْلَ ذَلِكَ بِزَمَانٍ طَوِيلٍ :

اسْتَقْدِرِ اللهَ خَيرًا وَارْضَيَنَّ بِهِ فَبَيْنَمَا الْعُسْرُ إِذْ دَارَتْ مَيَاسِيرُ

وَبَيْنَمَا المرء في دُنْيَاهُ مُغْتَبِطًا إِذْ صَارَ فِي الرَّمْسِ تعْفُوهُ الْأَعَاصِيرُ

يَبْكِي الْغَرِيبُ عَلَيْهِ لَيْسَ يعرفه وذو قَرَابَتِهِ فِي الْحَيِّ مَسْرُورُ

قَالَ: وَإِلَى جَانِبِي رَجُلٌ يَسْمَعُ مَا أَقُولُ ، فقال لي : يَا عَبْدَ اللهِ هَلْ لَكَ عِلْمٌ بِقَائِلِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ ؟ قُلْتُ: لَا وَاللهِ ؛ إِلَّا أَنِّي أَرْوِيهَا مُنْذُ زَمَانٍ . فَقَالَ : وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ ؛ إِنَّ قَائِلَهَا لَصَاحِبُنَا الَّذِي دَفَنَّاهُ آنِفًا السَّاعَةَ ، وَهَذَا الَّذِي تَرَاهُ ذُو قَرَابَتِهِ أَسَرُّ النَّاسِ بِمَوْتِهِ ، وَأَنْتَ الْغَرِيبُ تَبْكِي عَلَيْهِ كَمَا وَصَفْتَ . فَعَجِبْتُ لِمَا ذَكَرَ فِي شِعْرِهِ وَالَّذِي صَارَ إِلَيْهِ مِنْ قَوْلِهِ ، كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى مَكَانِهِ مِنْ جِنَازَتِهِ ، فَقُلْتُ : إِنَّ الْبَلَاءَ مُوَكَّلُ بِالْمَنْطِقِ ، فَذَهَبَتْ مَثَلًا [1].

وأما إيرادهم لحديث الإمام مسلمٍ فهو مناقضٌ تمامًا لحال يوسف –عليه وعلى نبينا وعلى أنبياء الله أفضل الصلاة والسلام– فإن ذلك الحديث يبين أن الرجل سأل الله العقوبة، والكريم ابن الكرماء –عليهم الصلاة والسلام– سأل الله العصمة من إثمٍ يستوجب العقوبة، فكيف يستويان ؟

نعم لقد جاء بعض من لم يفهم كلام الكريم ابن الكرماء –عليه وعلى أنبياء الله السلام–، واستدرك على كلامه بما لم يُحِطْ به علمًا، ولما يبلغه تأويله، ولنستحضر أن مصدرَ التعليم والاقتداء في حياة البشر هم الأنبياء الذين قال عليهم رب الأرض والسماء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ (الأنعام:90)، ومن المذكورين نصًّا في سورة الأنعام الكريم ابن الكرماء يوسف –عليه السلام– فكيف يُستدرك على نبي الله يوسف عليه السلام

1- المجالسة وجواهر العلم (3 / 145).

مثل قوله الذي حمل كل الهدى مع جمعه لأعظم البلاغة، وأعذب الفصاحة.

وهذا الذي قررناه هنا إنما قررناه قبل أن ندلف إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ حيث نرى الجمالَ البياني، والعبقريةَ المجاهِدةَ لأهواء النفوس الغوية مما جاء في رد يوسف عليه السلام على الماكرات المتآمرات عليه لإيقاعه في وسطهن الثقافي الخائن المليء بالتقاليد التي يُعبَدُ بها الشيطان، ويجرى فيه خلف بريق الشهوات المحرمة.. فتعالوا بنا إلى ما انطوى عليه كلام يوسف عليه السلام من القواعد التربوية واللآلئ البيانية:

المشهد الثامن عشر

يا لقوة الثبات المتنزلة عليه ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾

مَاذَا فَعَلَ يُوسُفُ عليه السلام أمام هذا الاجتماع الماكر لهؤلاء التائهات المتآمرات؟ مَاذا قَالَ وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ امرأة عزيز مصر قَدْ عِيلَ صَبْرُهَا، وَهَتَكَتْ سِتْرَهَا، وَكَاشَفَتْ نِسْوَةَ كِبَارِ بَلَدِهَا بِمَا تُسِرُّ وَمَا تُعْلِنُ مِنْ أَمْرِهَا؟ ماذا كان موقفه وهو يرى ما يسمى بالوسط الثقافي والاجتماعي متواطئًا عَلَى كَيْدِهَا، مشجعًا لها على إضلالها؟ هل يمكن لأحدٍ الصمود أمام ذلك المكر الكبار، وفي مواجهة ذلك السيل الجارف من سيئ الأفكار ؟

انظر إلى عناقيد الضياء، واسمع إلى تراتيل المجد! لقد جابه هذا المكر الكبار، والتهديد بالسجن والصغار بأعظم موقفٍ يمكن أن يُتصور من شابٍّ ملأ الإيمان قلبَه، ولم تخدع مواقف الإثارة بصرَه ولُبَّه، فقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾.. انظر لردة الفعل المُبْهِر، والقول العظيم المتدثر بكل معاني العبودية الصادقة لله جل في علاه.. لله جمال هذا الكلام.. لله در همة هذا الفتى النبيل الصادق الهمام، لكأنه يواجه العالم المليء بالمكر والآثام فيقول:

يا الله أنت أحب إليَّ من كل شيء تكرهه ولا ترضاه

يا الله أنت أحب إلي من إغراء ومنصب ومال وجاه

يا الله أنت أحب إليَّ من وسوسات السوء وكل ما تأباه

لكأنه قَالَ: رَبِّ أنت الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِي، الْعَالِمُ بِسِرِّي وَجَهْرِي، إِنَّ الْحَبْسَ وَالِاعْتِقَالَ فِي السِّجْنِ مَعَ الْمُجْرِمِينَ ومعاناة الآلام مع المعذبين أَحَبُّ إِلَى نَفْسِي إذا كان سيبعدني عن هذه البيئة العفنة، والنفوس المريضة..

لكأنه يقول: اللهم مالك الملك أنت الرحيم الغفور.. السجن أحبُّ إليَّ مِنَ الِاسْتِمْتَاعِ بِالحرام في تَرَفِ الْقُصُورِ..

لكأنه يقول: اللهم مالك الملك رب العرش العظيم.. الثباتُ على حبّك، والبحثُ عن ما يرضيك ويوصل إلى قربك أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه من العبث واللهو والنعيم.

فهذه الجملة المباركة: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ يُفَسّرها سِيَاق الْقُرْآنِ، وَما يُعلم مِنْ طِبَاعِ الرِّجَالِ وَالنِّسْوَانِ، وَمِنَ التَّارِيخِ الْعَامِّ، وَالسُّنَنِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْعَادَاتِ، وَسِيرَةِ الصَّالِحِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ، دُونَ حَاجَةٍ إِلَى مَا لَا سَنَدَ لَهُ وَلَا دَلِيلَ عَلَيْهِ مِنَ الرِّوَايَاتِ وَدَسَائِسِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ، وَمِنْهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي السِّجْنِ إِلَّا الِاعْتِبَارُ بِأَحْكَامِ الْمُلُوكِ وَأَعْوَانِهِمْ مِنَ الْوُزَرَاءِ وَالْقُضَاةِ عَلَى مَنْ يَسْخَطُونَ عَلَيْهِمْ بِحَقٍّ أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ، مِمَّا يَزِيدُنِي إِيمَانًا بِقَضَائِكَ، وَصَبرًا عَلَى بَلَائِكَ، وَشُكْرًا لِنَعْمَائِكَ، وَعِلْمًا بِشُئُونِ خَلْقِكَ، وَيَفْتَحُ لِي بَابَ الدَّعْوَةِ إِلَى مَعْرِفَتِكَ وَتَوْحِيدِكَ، وَالِاسْتِعْدَادِ لِإِقَامَةِ الْحَقِّ، وَنَصْبِ مِيزَانِ الْعَدْلِ، فِيمَا عَسَى أَنْ تُخَوِّلَنِي مِنَ الْأَمْرِ، إِذَا مَكَّنْتَ لِي كَمَا وَعَدْتَنِي فِي الْأَرْضِ.

جمال المفاصلة اليوسفية للمطالبات الشهوانية الغوية

عندما تسمع يوسف عليه السلام وهو يقول: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ (يوسف) فإنك تجد نهرًا من المعاني المتلألئة قد صيغت في قالب لفظي يجمع الكمال والجمال والجلال، حيث انقسمت هذه الآية المباركة إلى قسمين يعبران عن رجائين من يوسف –عليه وعلى أنبياء الله الصلاة والسلام–:

اختيار التعذيب (السجن) إن كان هو الوسيلة الوحيدة لاتقاء الفاحشة، واللجوء إلى الله تعالى متبرئًا من حوله وقوته، ويتأمل ابن القيم ذلك فيقول: "فاختار السجن على الفاحشة، ثم تبرأ إلى الله من حوله وقوته، وأخبر أن ذلك ليس إلا بمعونة الله له وتوفيقه

وتأييده لا من نفسه فقال: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ (يوسف)، فلا يركن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفته، ومتى ركن إلى ذلك تخلت عنه عصمة الله وأحاط به الخذلان، وقد قال الله تعالى لأكرم الخلق عليه وأحبهم إليه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـًٔا قَلِيلًا﴾ (الإسراء:74) [1].

تفوق التعبير اليوسفي على مقاييس الفصاحة والبلاغة

هدى الله يوسف -عليه وعلى أنبياء الله الصلاة والسلام- إلى التعبير الأعظم مناسبة في المكان المناسب، فمهما حاول أحدٌ أن يجد تعبيرًا أجلَّ أو أعظم فإنه لا يمكن أن يجده، فلو زعم زاعمٌ أن يوسف -عليه وعلى أنبياء الله الصلاة والسلام- لو قال: "(رب عافني أو العافية أحب إلي) لكان أفضل" لقلنا: إن ذلك لا يساوي شيئًا أمام عظمة وجلال قوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ...﴾، ولقد جمعت كلماته من الفصاحة ما خفي على الفصحاء، ومن البلاغة ما تقاصرت دونه ألسن البلغاء.

فما هي الفصاحة؟ أليست هي: "ظهور الألفاظ مع حسنها"[2]! وما هي البلاغة؟ أليست هي: "بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدًّا له اختصاصٌ بتوفية خواص التراكيب حقها"[3]! أو هي: "أن يبلغ المتكلم بعبارته كنه مراده مع إيجازٍ بلا إخلالٍ، وإطالةٍ من غير إملال"[4]. أو "هي: تأدية المعنى الجليل واضحًا بعبارةٍ صحيحةٍ فصيحةٍ: لها في النفس أثرٌ خلاب، مع ملاءمة كل كلامٍ للموطن الذي يقال فيه"[5]. بل نذكر هنا هذا الحوار الذي نقله لنا صاحب البيان والتبيين حول البلاغة، فقد قال:

حَبَّرني أبو الزبير كاتب محمد بن حسان، وحدثني محمد بن أبان -ولا أدري كاتب من

1- روضة المحبين ص459.
2- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (3/ 211) .
3- مفتاح العلوم (ص: 415) .
4- طيب المذاق من ثمرات الأوراق (ص: 350) .
5- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع (ص: 40) .

كان- قالا:

قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل.

وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام.

وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة.

وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة[1].

وإذا طبقت كل هذه التعاريف على هذا الكلام المعجز لوجدتها كلَّها فيه، بل قد بلغ من البلاغة والفصاحة ما هو أعلى من ذلك.

وقد قيل في الفرق بين البلاغة والفصاحة: إن البلاغةَ هي كل ما يبلغ به المعنى قلب السامع، فيمكنه في نفسه ليمكنه في نفس المخاطب مع صورةٍ مقبولة. والفصاحة: تمام آلة البيان.

وعلى هذا تكون الفصاحة والبلاغة أمرين مختلفين، وذلك أن الفصاحة تمام آلة البيان، فهي مقصورة على اللفظ، والبلاغة إنما هي إنهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى.

وقد حوت كلمات يوسف في لفظها زينةَ الغواني، وفي معناها قبسًا من السبع المثاني، ولا غرو فهو الكريم ابن الكرام عليهم وعلى أنبياء الله الصلاة والسلام.

صدع يوسف بذلك المقال له وقع أقوى من الجبال الثقال

وأول ما يقابلك في مشهد يوسف مع مجلس هيئة التآمر الشهواني: كيف قال يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام هذا الابتهال مناجيًا الكريم المتعال؟

1- البيان والتبيين (1/ 91) .

هل جهر به أمام عابدات الشهوات؟ أم أسرَّ به بينه وبين رب الأرض والسموات؟

يظهر أنه جَهَرَ بِهِ فِي مَلَئِهِنَّ؛ تَأْيِيسًا لَهُنَّ مِنْ أَنْ يَفْعَلَ مَا تواطأن عليه، وذلك حتى يستعرض أمامهن مقدار عزيمته، وتفوقه في صبره على طاعة الله ومصابرته، وليظهر لهن مقدار قوته، وليكشف إصراره على التحدي أمام هذا الهجوم الرهيب الذي يركز على صدقه، وعفته، وكرامته، وإيمانه من قبل عابدات الهوى.

ولنسمع الآن إلى هذا التحليل المدهش لواقع امرأة العزيز ونسوتها والمجتمع الذي تعيش فيه: "وامرأة العزيز.. في صراع الشهوة التي تعمي عن كل شيء في اندفاعها الهائج الكاسح، فلا تحفل حياء أنثويا ولا كبرياء ذاتيا، كما لا تحفل مركزا اجتماعيا ولا فضيحة عائلية.. والتي تستخدم -مع ذلك- كل مكر الأنثى وكيدها، سواء في تبرئة نفسها، أو حماية من تهوى من جرائر التهمة التي ألصقتها به، وتحديد عقوبة لا تودي بحياته! أو رد الكيد للنسوة من ثغرة الضعف الغريزي الشهوي الذي تعرفه فيهن من معرفتها لنفسها! أو التبجح بشهوانيتها أمام انكشاف ضعف عزيمتها وكبريائها أمام من تهوى، ووقوف نسوتها معها على أرض واحدة، حيث تبدو فيها الأنثى متجردة من كل تجمل المرأة وحيائها.. الأنثى التي لا تحس في إرواء هواتفها الأنثوية أمرا يعاب أصلا! ومع صدق التصوير والتعبير عن هذا النموذج البشري الخاص بكل واقعيته، وعن هذه اللحظة الخاصة بكل طبيعيتها؛ فإن الأداء القرآني -الذي ينبغي أن يكون هو النموذج الأعلى للأداء الفني الإسلامي- لم يتخل عن طابعه النظيف مرة واحدة -حتى وهو يصور لحظة التعري النفسي والجسدي الكامل بكل اندفاعها وحيوانيتها- لينشيء ذلك المستنقع الكريه الذي يتمرغ في وحله كتاب «القصة الواقعية»، وكتاب «القصة الطبيعية» في هذه الجاهلية النكدة بحجة الكمال الفني في الأداء!

ويوسف.. العبد الصالح -الإنسان- لم يزوّر الأداء القرآني في شخصيته الإنسانية لمحةً واحدة وهو يواجه الفتنة بكل بشريته -مع نشأته في بيت النبوة وتربيته ودينه- تمثل بمجموعها واقعيته بكل جوانبها.. لقد ضعف حين همت به حتى هم بها، ولكن الخيط الآخر

شده وأنقذه من السقوط فعلا. ولقد شعر بضعفه إزاء كيد النسوة، ومنطق البيئة، وجو القصور، ونسوة القصور أيضا! ولكنه تمسك بالعروة الوثقى.. ليست هنالك لمحة واحدة مزوّرة في واقعية الشخصية وطبيعيتها، وليس هنالك رائحة من مستنقعات الجاهلية ووحلها الفني! ذلك أن هذا هو الواقع السليم بكل جوانبه.." [1].

1- في ظلال القرآن (4/ 1953) .

المشهد التاسع عشر

عظمة التعبير اليوسفي في الصمود أمام سعار الشهوانيين
مشهد لجوء الملهوف المستغيث إلى المغيث

فلننظر في الجمال والجلال ودلائل الإعجاز والكمال في كلام الكريم ابن الكرماء -عليه وعلى أنبياء الله الصلاة والسلام- فماذا قال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ (يوسف).

جمال الاختيار لعبارة المصطفين الأخيار (رب):

أول ما يقرع سمعك من كلام هذا النبي النبيل عليه وعلى أنبياء الله الصلاة والسلام قوله (رب)، فلماذا لجأ إلى هذا الاسم؟

لأن الرب يطلق على ثلاثة معانٍ: على السيد المطاع، كما قال لَبِيد بن ربيعة:

وأَهْلكْنَ يومًا ربَّ كِنْدَة وابنَه ورَبَّ مَعدٍّ، بين خَبْتٍ وعَرْعَرِ

يعني بربِّ كندة: سيِّد كندة.

وعلى المصلح للشيء فإنه يُدعى ربًّا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ (النساء: 23) فالربائب جمع ربيبة، وهي بنت الزوجة التي يربيها المرء في حجره.

وعلى المالك للشيء.

فربّنا جلّ ثناؤه هو السيد الذي لا شِبْه لهُ، ولا مثل في سُؤدده، والمصلح أمر خلقه بما يصلحهم إعطاء وقبضا، ونعمًا وابتلاء، وحكمًا وأحكامًا، وهو سبحانه المالك لهم الذي له

الخلق والأمر، فما يشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين، فلجأ يوسف عليه الصلاة والسلام إلى ربه وسيده ليمنعه من فعل الشبهة ومكانها، وإلى مصلحه ليصلح نفسه أن تميل إلى داعيات السوء والشهوة، وإلى مالكه ومالكهن ليحول بينه وبينهن، ولذا يتلذذ المرء عندما ينادي: ربِّ، ربِّ، وعَلَّم النبيُّ صلى الله وعليه وآله وسلم أَسْمَاءَ بِنْتَ عُمَيْسٍ ترديدَ هذه الكلمةِ العظيمةِ حيث قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- ((أَلاَ أُعَلِّمُكِ كَلِمَاتٍ تَقُولِينَهُنَّ عِنْدَ الْكَرْبِ أَوْ فِي الْكَرْبِ: اللَّهُ اللَّهُ رَبِّي لاَ أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))[1].

لكلِّ خطبٍ مهمٍّ حسبيَ اللهُ أرجو بهِ الأمنَ مما كنتُ أخشاهُ
وأستغيثُ بهِ في كلِّ نائبةٍ وما ملاذيَ في الداريـنِ إلا هو
ذو المنِّ والمجدِ والفضلِ العظيمِ ومنْ يدعوهُ سائلُهُ: رباهُ رباه[2]

فيوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام يستغيث بما فيه غوث (المَربى) عند (المربي) على هيئةٍ تظهر قوةَ إيمان (الربانيين)، وثباتَ (الرِّبيين المخلصين)، واستغاثتَهم بمربيهم، واعتمادهم على رحمته وعونه، ونصرته وتأييده، فلم يقل (اللهم) ولا (يا الله)، وكلام يوسف -عليه وعلى أنبياء الله الصلاة والسلام- كان بغير العربية، لكن الله نقله بأدق ترجمة يمكن أن تكون بالعربية لتعبر عن كلماته وأحاسيسه في الوقت ذاته.

واسمع إلى هذه الجملة الرائعة العجيبة: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ لتتصور معها كأن الملائكة والجبال والأرض والشجر والحجر والطير تسبح بحمد الله تعالى، وتبتهل حبًّا لهذا الشابُّ المخبت الأواه.

كيف آثر الركون إلى الإله الجليل الرحيم الغفار، تاركًا وراءه كل لذةٍ تلمع منها الأوزار، وتسطع منها -كاذبةً- مستنقعات الأغلال المختبئة خلف الذنوب والآصار؟ كيف لم تجذبه

1- أبو داود 1 /561، وصححه جمع من أهل العلم.
2- ديوان البرعي (ص: 22).

الذنوب في أثوابها المبهرجة الحمراء، وزينتها المزركشة الصفراء، ولجأ إلى رب الأرض والسماء؟ (ربِّ).. إنه مشهد جذب العواطف والمشاعر إلى الرحيم الشاكر.

الجمال في استخدام اسم التفضيل (أحب):

لقد اختار يوسف عليه السلام لفظ المحبة ذي الإشعاعات العاطفيّة الهائمة في قوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ ليعكس مشاعر شتى تعتمل في صدره، وكلها تدور تابعةً لما يحب الله، ثم اختار من المحبة أن يأتي باسْمِ التَّفْضِيلِ (أحب) ليبين أبعادًا عدةً في كلامه:

البعد الأول: استبداد صفة المحبة وتملكها ليوسف عليه السلام متعلقةً بالله لا بغيره:

فيكون المعنى: إذا أردتن المقارنة بين رجسكن وشهواتكن العفنة وبين السجن، فالسجن هو الحب الحقيقي الذي لا أساويه بكل ما تعرضن، فصيغة التفضيل (أحب) تدل على الاستبداد لا على التفضيل هنا، فهي خارجةٌ عن مقتضى ظاهرها؛ وقد ذكر الطاهر بن عاشور أن ﴿أَحَبُّ﴾ مسلوبة المفاضلة[1]؛ إذ لا يراد بها إلا أن السجن هو المكان الحبيب عند التخيير بين ما دعونه إليه وبين السجن، ويدل على ذلك حَالَةُ يُوسُفَ عليه السلام، وَسَابِقُ قِصَّتِهِ، وَلَاحِقُهَا بِغَيْرِ تَكَلُّفٍ، وَلَا تَحَكُّمٍ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ مَا يَدْعُونِي إِلَيْهِ مَحْبُوبٌ عِنْدِي، وَالسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنَّ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ إِذَا تَعَارَضَا وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ أَحَدِهِمَا، فَالسِّجْنُ آثَرُ وَأَوْلَى بِالتَّرْجِيحِ؛ لِأَنَّ مَا فِيهِ مِنَ الْمَشَقَّةِ لَهُ فَائِدَةٌ عَاجِلَةٌ، وَعَاقِبَةٌ صَالِحَةٌ، وَأَمَّا مُجَاهَدَةُ هَؤُلَاءِ النِّسْوَةِ مَعَ الْمُكْثِ مَعَهُنَّ، فَهُوَ أَشَقُّ عَلَى الْمُؤْمِنِ الْعَارِفِ بِرَبِّهِ، فاسْمُ التَّفْضِيلِ مِنْ قَبِيلِ قَوْلِ الْمُحَدِّثِينَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ: هُوَ أَصَحُّ مَا فِي هَذَا الْبَابِ، يَعْنُونَ: أَقْوَى مَا فِيهِ، وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا غَيْرُ صَحِيحَةٍ، بَلْ هُوَ كَقَوْلِهِ تعالى الْآتِي: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾(يوسف) [2].

1- التحرير والتنوير (11/ 12) .
2- تفسير المنار 12 /244.

وهذا الاستعمال لأفعل التفضيل نجده كثيرًا في القرآن المجيد نحو قول العزيز الحميد: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (فصلت: 40)؛ فإنه لا خير فيمن يلقى في النار عند مقارنته بالآمن، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فالمقارنة بمن يأتي آمنًا لتصوير مقدار الخسارة لمن يلقى في النار، لا لاحتمال خيريةٍ قليلةٍ فيه، وإنما أورد يوسف عليه السلام صيغة التفضيل ﴿أَحَبُّ﴾ وهي غير مرادة لصياغتها بهذا القالب الرائع الذي يوهم المقارنة حتى يبين تحول ما يُظَنُّ أنه مكان عذاب إلى مكان راحة عند أولي الألباب، ولإظهار شدة التضحية في سبيل الله سبحانه؛ فالمكان الذي لا يعصي الله فيه هو أحب من كل ما يُستمتع به.

البعد الثاني: شدة كراهية هذا الشابُّ لعرضهن المجر:

وهو بعدٌ رائعٌ في هذه الجملة العجيبة: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ يبينه البقاعي في تفسيره: فلما علم الفتى الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بين إبراهيم سوء عاقبة المعصية بعد سرعة انقضاء اللذة قال هذه الجملة، وهي تدل على غاية البغض لموافقة هؤلاء النسوة في عرضهن، فإن السجن لا يُتصور حبُّه عادة، وإنما المعنى أنه لو كان يتصور الميل إليه كان ميلي إليه أكثر، لكنه لا يُتصور الميل إليه لأنه شرٌّ محض، ومع ذلك فأنا أؤثره على ما دعونني إليه، لأنه أخف الضررين، فأطلق المحبة على ما يضادها في هذا السياق من البغض بدلالة الالتزام، ولأنه سيؤدي إلى حمايته من الفتنة؛ فهو أحب، بدلًا من أن يقول: هو أقل بغضًا[1].

البعد الثالث: اختلاف المقاييس التي ينظر بها المؤمن إلى حالات الدنيا:

لو جعلنا التفضيل في قوله ﴿أَحَبُّ﴾ على بابه، وليس خارجًا عن مقتضى الظاهر لكان المعنى يؤذن بأنه يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ التَّفْضِيلِ تَرْجِيحَ الْأَحَبِّ بِمُقْتَضَى الْإِيمَانِ وَحُكْمِ الشَّرْعِ عَلَى الْمَحْبُوبِ بِمُقْتَضَى الْغَرِيزَةِ وَدَاعِيَةِ الطَّبْعِ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالصُّلَحَاءَ كَسَائِرِ الْبَشَرِ يُحِبُّونَ النِّسَاءَ، وَيَشْتَهُونَ الِاسْتِمْتَاعَ بِهِنَّ، وَلَكِنَّهُمْ يبغضون أشدَّ البغض أَنْ يَكُونَ مِنْ غَيْرِ الْوَجْهِ الْمَشْرُوعِ، وأما مجيئه من الوجه المشروع فهو مطلوبٌ شرعًا وطبعًا كما قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى

1- نظم الدرر 10 /75.

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –كما رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ–: ((وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ)) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ: أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: ((أَرَأَيْتُمْ إِذَا وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ كَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟ كَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ))[1].

البعد الرابع: كلمة ﴿أَحَبُّ﴾ تعكس أنوع المجاهدات العظيمة التي قاساها يوسف عليه السلام:

فقد اجْتَمَعَ فِي حَقِّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْوَاعٌ مِنَ المؤثرات الهائلة التي تجعل الوسوسة في حقه أقوى، وتجذبه للانقياد إلى الرضوخ إلى داعي الهوى، وفعل تلك البلوى، وهذه المؤثرات هي:

المؤثر الأول: أَنَّ امرأة العزيز كَانَتْ فِي غَايَةِ الْحُسْنِ.

وَالمؤثر الثَّانِي: أَنَّهَا كَانَتْ ذَاتَ مَالٍ وَثَرْوَةٍ.

والمؤثر الثالث: أنها ذات جاهٍ ومنصب، وَكَانَتْ عَلَى عَزْمٍ أَنْ تَبْذُلَ الْكُلَّ لِيُوسُفَ إذا لان لها بتحقيق مَطْلُوبِهَا، وسار على هواها في فعل مرغوبها.

ومما يدل على شدة المحبة الطبيعية للمرأة ما جاء فِي حَدِيثِ السَّبْعَةِ الَّذِينَ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ حَيْثُ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ فِي مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ: ((وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ جَمَالٍ وَمَنْصِبٍ إِلَى نَفْسِهَا فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ))، وإنما خص المرأة ذات المنصب؛ لأن لِلْمَرْأَةِ ذَاتِ الْمَنْصِبِ سُلْطَانًا عَلَى قَلْبِ الرَّجُلِ فَوْقَ سُلْطَانِ غيرها، وَإِنْ كَانَتْ جَمِيلَةَ الصُّورَةِ، فَيَثْقُلُ عَلَى طَبْعِهِ وَتَضْعُفُ إِرَادَتُهُ أَنْ يَرُدَّ طَلَبَهَا، فَكَيْفَ بِهَا إِذَا جَمَعَتْ بَيْنَ سُلْطَانِ الْجَمَالِ وَسُلْطَانِ الْمَنْصِبِ، ثُمَّ ذَلَّتْ لَهُ وَدَعَتْهُ إِلَى نَفْسِهَا؟"[2].

وَالمؤثر الرابع: تذليل كل العقبات التي يمكنها أن تحول بينه وبين تلبية مرادها، بل جعل

1- تفسير المنار 12 /244.
2- تفسير المنار 12 /244 والحديث رواه البخاري 1 /168 برقم 660.

تلك العقبات والعوائق سبلًا مذللةً له لارتقاء المجد الدنيوي، وهذه العوائق مثل: عدم حصول الخلوة معها، وكونها ذات شرفٍ في قومها، وتطمح الأعين إلى نيل رضاها في العادة، وأول هذه العوائق غَيرة زوجها عليها، فقد ذللت رجلها ورَوَّضته حدًّا يثير العجب، فبدلًا من أن يقوم بإبعاد يوسف عليه السلام عن بيتها أبقاه قريبًا منها، ومثل هذا التصرف عادةً لا يكون إلا طلبًا لرضاها، وتقريبًا لها من مبتغاها.

وأما المؤثر الخامس: فهو أسوأها؛ إذ المجتمع كله يساعدها على تحقيق مرادها، فالثقافة المستهجنة لذلك الفعل عارضةٌ محدودةٌ، ومجرد قشرةٍ خفيفة في ظل المدنية المريضة، والحضارة السقيمة، والبعد عن فطرة الله التي فطر الناس عليها، ولذا ما إن استنكرت النسوة على تلك المرأة خبرها حتى اجتمعن معها على يوسف يحاولن أن يدفعنه دفعًا نحو الفعل المكروه.

وَالمؤثر السادس: قوة سلطانها، وعظم مكرها، مما قد يسبب له الأذى أو الحبس أو القتل.

وكلُّ مؤثرٍ من هذه المؤثرات الستة كافٍ في دفع يوسف نحو الهاوية المزخرفة بأنواع الزينة الجاذبة، وَالْقُوَّة الْبَشَرِيَّة وَالطَّاقَة الْإِنْسَانِيَّة لَا تؤدي إلى الحماية من الغواية، ولا إلى العصمة من الجناية، فَعِنْدَ هَذَا الْتَجَأَ يوسف إِلَى الله تَعَالَى في الوقت الذي يعلن نتيجة مكرهن بالتجائه، وجوابه على إغوائهن وتهديدهن فقَالَ: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾[1].

البعد الخامس: استخدم يوسف عليه السلام كلمةَ المحبين {أحب} دون غيرها من الكلمات، فلم يقل: السجن أرضى، ولا آثر، بل ذكر ما اشتق من المحبة فقال (أحب) ليبين استلذاذه بما يريد ربه جل في علاه، وحاله في هذا كما قال أبو فراس في مخلوق ما كان أحراه أن يقولها في خالقه:

1- تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (18/ 451) .

فليتـك تحلـو والحيـاة مـريـرة وليتـك ترضـى والأنام غضـاب

وليت الذي بيني وبينك عامر وبينـي وبيـن العالمين خـراب

إذا صح منك الود فالكل هين وكـل الـذي فـوق التراب تراب

المشهد العشرون

عظمة التعبير اليوسفي في الصمود أمام سعار الشهوانيين

مشهد: تفضيل السجن على شهوة المعصية يدل على أعظم درجات طلب العافية

فقد ذكر يوسف السجنَ لا لأنه لم يرد العافية –حاشاه– ولكنه ذكر الأمر الطبيعي عند التخيير بين المعصية والسجن، فاختار السجن، واختياره للسجن يدل على أنه طلب أعظم درجات العافية من الشهوة المحرمة، وأعلى درجة الطلب هو رد هذا الرجس ولو اقتضى الأمر البعد عنه في أسوأ الأماكن عيشًا وهو السجن، فكأنه قال: رب عافيتك لي من هذا الرجس هي طلبي ومأمولي، ولو كان ذلك في السجن الذي يهددنني به، ولذا قال ابن تيمية وهو يفسر هذه الآية العظيمة، ويبين وجه البلاغة النبوية اليوسفية: "وَفِي قَوْلِ يُوسُفَ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ عِبْرَتَانِ:

إحْدَاهُمَا: اخْتِيَارُ السَّجْنِ وَالْبَلَاءِ عَلَى الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي.

والثَّانِيَةُ: طَلَبُ سُؤَالِ اللَّهِ وَدُعَائِهِ أَنْ يُثَبِّتَ الْقَلْبَ عَلَى دِينِهِ، وَيَصْرِفَهُ إلَى طَاعَتِهِ، وَإِلَّا فَإِذَا لَمْ يُثَبِّتِ الْقَلْبَ صَبَا إلَى الْآمِرِينَ بِالذُّنُوبِ، وَصَارَ مِنَ الْجَاهِلِينَ".

وبين الطاهر بن عاشور أن اختيار يوسف هو الاختيار الموفق الذي ربما سقط قبله الخاسرون: "وَفَضَّلَ السَّجْنَ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْأَلَمِ وَالشِّدَّةِ وَضِيقِ النَّفْسِ عَلَى مَا يَدْعُونَهُ إِلَيْهِ مِنَ الِاسْتِمْتَاعِ بِالْمَرْأَةِ الْحَسَنَةِ النَّفِيسَةِ عَلَى مَا فِيهِ من اللذة، وَلَكِنَّ كُرْهَهُ لِفِعْلِ الْحَرَامِ فَضُلَ عِنْدَهُ مُقَاسَاةَ السِّجْنِ. فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ لَا مَحِيصَ مِنْ أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ صَارَ السَّجْنُ مَحْبُوبًا إِلَيْهِ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ يُخَلِّصُهُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْحَرَامِ فَهِيَ مَحَبَّةٌ نَاشِئَةٌ عَنْ مُلَاءَمَةِ الْفِكْرِ، كَمَحَبَّةِ الشُّجَاعِ الْحَرْبَ، فَالْإِخْبَارُ بِأَنَّ السِّجْنَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الِاسْتِمْتَاعِ بِالْمَرْأَةِ مُسْتَعْمَلٌ فِي إِنْشَاءِ الرِّضَى

بِالسِّجْنِ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالتَّبَاعُدِ عَنْ مَحَارِمِهِ، إِذْ لَا فَائِدَةَ فِي إِخْبَارِ مَنْ يَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِهِ، فَاسْمُ التَّفْضِيلِ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَلَا دَاعِيَ إِلَى تَأْوِيلِهِ بِمَسْلُوبِ الْمُفَاضَلَة"[1].

وذكر السعدي جمال الموازنة التي خطرت ليوسف حينما عرضت تلك المرأة إغراءها وتهديدها معًا، وذلك أثناء حديثه عن فوائد قصة يوسف عليه السلام:

"ومنها: أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية، فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين –إما فعل معصية، وإما عقوبة دنيوية– أن يختار العقوبة الدنيوية على مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة، ولهذا من علامات الإيمان، أن يكره العبد أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار".

إن يوسف صار هواه في رضا ربه جلَّ في علاه، وكأنه أقرب في هذه المناجاة الإلهية التي آثرت السجن على ما سواه بقول ابن دريد:

قلبٌ تقطعَ فاستحالَ نجيعا ... فجرى فصارَ معَ الدموعِ دموعا
رُدَّتْ إلَى أَحْشَائِهِ زَفَرَاتُهُ ... فَفَضَضْنَ مِنْهُ جَوَانِحًا وَضُلوعًا
عجبا لنارٍ أضرمتْ في صدرهِ ... فَاسْتَنْبَطَتْ مِنْ جَفْنِهِ يَنْبُوعَا
لهبٌ يكونُ إذا تلبسَ بالحشا ... قيظًا ويظهرُ في الجفونِ ربيعا

فهل بكى يوسف وهو يطلب غوث ربه سبحانه؟ الأمر محتمِل. والله أعلم.

ذكر السجن على لسان يوسف عليه السلام يبين قوة تحديه للعفن المجتمعي

وانظر في تلك الكلمات النيرة، وبريقها الوضاء حيث قال يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾. فهذه الجملة المحكمة: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ (يوسف: 33) قد

1- التحرير والتنوير (12/ 265) .

بلغت ذرا السحاب بخروجها من هذا الشابُّ الريان الممتلئ بالقوة والشباب، وما البلاغة إلا مُطابقة الكلام الفصيح لما يقتضيه الحال[1]، فلماذا قدَّم ذكر السجن؟ ولماذا لم يقل: رب أحب إلي أن أسجن؟

انظر هاهنا إلى يوسف عليه السلام وهو يقدِّم ذكر السجن الذي تم التهديد به على كل شيء آخر، مع وضعه في قالب الابتهال والتضرع والدعاء لعدة أمور:

الأمر الأول: ليبين مقدار تحديه للإغراء، وثباته أمام الإغواء، فكأنه يقول:

لعمرك ما أهويت كفِّي لريبةٍ ولا حملتني نحو فاحشةٍ رجلي
ولا دلني سمعي ولا بصري لها ولا قادني فكري إليها ولا عقلي
وأعلمُ أنِّي لم تصبني مصيبةٌ من الله إلا قد أصابت فتى قبلي

فالسجن الذي يهددون به سيكون محلًّا للمحبة والمودة إذا كان المقابل له هو الخيانة والرذيلة المحرمة مما أرادته امرأة العزيز بقولها: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ (يوسف: 32).

الأمر الثاني: ليبين كيف يتحول أسوأ ما هددوا به بردًا وسلامًا إذا كان في طاعة الله سبحانه، ويخبر عن مدى شعوره بالراحة والثبات والاستقرار في السجن إذا كان هو المكان الوحيد الذي سيعصمه الله فيه من المعصية، ويدفعه عن الفتنة.

لقد جعل يوسف السجن أعظم ملجأ وأحبه إليه أمام هذا السيل المتلاطم المغري من الإغواء للشهوات المجرمة من قبل هؤلاء النسوة، ولذا عبر عن ذلك بالجملة الاسمية الدالة على الاستقرار والثبات فقال: (السجن أحب إلي) دون أن يقول: لأن أسجن أحب إلي، ومثل ذلك أصحاب الكهف فقد بشرهم الله تعالى بوحيٍ خاص أو بإعلام وهداية شعورية

1- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع (ص: 42) .

ذاتية أن الكهف خير لهم من كل مدنية، ففي ذلك الكهف الضيق المظلم ستنشر لهم الرحمة، ويجدون المِرفَق الرقيق الرفيق كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾(الكهف:16)، ويوسف حدث له الأمر ذاته، فإنه رأى أن السجن سيكون ظلًا وارفًا، وحديقة غناءن وهنا يذكر المرء قول حادي الراشدين في صحراء الاضطهاد المستمر في العصر الحاضر، وهو يقول:

لقد نفونا فقلنا: الماء أين جرى — يحيي الموات ويروي كل ظمآنا
قالوا: إلى السجن، قلنا: شعبة فتحت — ليجمعونا بها في الله إخوانا
قالوا: إلى الطور، قلنا: ذاك مؤتمر — فيه نقرر ما يخشاه أعدانا!
فهو المصلى نزكى فيه أنفسنا — وهو المصيف نقوي فيه أبدانا
معسكر صاغنا جندا لمعركة — ومعهد زادنا للحق تبيانا
من حرموا الجمع منا فوق أربعة — ضموا الألوف بغاب الطور أسدانا!
راموه منفى وتضييقا فكان لنا — بنعمة الحب والإيمان بستانا!
هذا هو الطور شاءوا أن نذوب به — وشاء ربك أن نزداد إيمانا

سيكون السجن ألذ متكًا وأجمل مرتفقًا إذا كان هو السبيل الوحيد للعصمة من المعصية، ولذا لما جاءه الرسول من الملك لم يهب مسرعًا للخروج، قبل أن تظهر أمام الملأ براءتُه، وتطيب علانيتُه كما طُيِّبَت خبيئتُه، فتُبيَّضَ أمام العامة والخاصة صفحته، فقال لرسول الملك: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠﴾ (يوسف)، وهو الموقف الذي استحق إجلالًا وإكبارًا وإشادة من سيد الخلق، وحبيب الحق صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ((وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لأَجَبْتُ الدَّاعِيَ))[1].

1- البخاري 179/4.

المشهد الواحد والعشرون

عظمة التعبير اليوسفي في الصمود أمام سعار الشهوانيين

مشهد: تقديم عبارة (السجن أحب إلي) على ما بعدها:

قدَّم يوسف عليه السلام هذه العبارة (السجن أحب) ليبين للعالمين مبدأ (الاستعصام واختيار ما فيه البلاء والحِمام أو العناء والموت الزؤام في مواجهة عدوان الذين يتبعون الشهوات والشبهات)، وهو بذلك يبين عدم المبالاة بالتهديد والوعيد في مقابل إرضاء رب العبيد، خاصةً أنه يقف أمام فتنة هي أعظم الفتن على الرجال كما في البخاري عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ))[1]. وسوَّى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين فتنة الدنيا كلِّها وبين فتنة النساء فيما بينه لنا أَبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وآله وسلم- قَالَ: ((إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؛ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ))[2].

وقد سلك هذا الدربَ الأخضرَ، والمهيَعَ الأفيحَ يوسفُ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، واقتدى به الصالحون السالكون صراط الذين بهداهم يقتدي المتقون، فمنهم مثلًا: سحرة فرعون الذين فتحت لهم أنوار الحكمة، ولآلئ اليقين بعد إيمانهم حينما هددهم فرعون بالصلب والتقطيع، فقال الله واصفًا ردَّهم: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ٥٠﴾ (الشعراء).. اسمعْ لهم فقد قالوا قولًا فصلًا مبينًا:

سنجد اللذة في الصلب والتقطيع وكل قضاء تقضيه يا فرعون متجبرًا مادام لن يحرفنا ذلك عن ديننا ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢﴾ (طه).

1- البخاري 11/7.
2- مسلم8 /89.

وممن سار على هذا الدرب الأخضر الصادق النازف ليرضي القوي المتين خبيب بن عدي رضي الله عنه الذي أخذه المشركون غدرًا، فلما وضعوا فيه السلاح وهو مصلوب نادوه وناشدوه: أتحب أن محمدًا مكانك فقال: لا والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه. فضحكوا، وقال خبيب حين رفعوه إلى الخشبة:

لقد جمع الأحزاب حولي وألَّبوا قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وقد قرَّبوا أبناءهم ونساءهم وقُرِّبت من جذعٍ طويل مُمَنّع
وكلهم يبدي العداوة جاهدًا عليَّ لأني في وثاقٍ بمضيع
إلى الله أشكو غربتي بعد كربتي وما جمع الأحزاب لي عند مصرعي
فذا العرش صبرني على ما أصابني وقد بضعوا لحمي وقد قل مطمعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع
وقد عرضوا بالكفر والموت دونه وقد ذرفت عيناي من غير مدمع
وما بي حذار الموت إني لميت ولكن حذاري حر نارٍ ملفع
فلست بمبدٍ للعدو تخشعًا ولا جزعًا إني إلى الله مرجعي
ولست أبالي حين أقتل مسلما على أي شق كان لله مضجعي

وخبيب هنا لم يسأل العافية ولا قابل خطابهم المتحدي بخطاب مستجدي، بل قابل التحدي بالعزم والتصدي.. أوليس له سلف صدقٍ في يوسف عليه السلام ؟

المقالة اليوسفية أسوة سلاسل الضياء المتحدية لإجرام الظلام والظُلاَّم:

مقالة يوسف –عليه وعلى أنبياء الله الصلاة والسلام– تطبيقٌ عمليٌّ قوليٌّ قلبيٌّ لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بهن حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحبَّ عَبْدًا لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ))[1].

1- صحيح البخاري. حسب ترقيم فتح الباري – (1 / 12) .

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((كما يكره أن يلقى في النار)) نراه ساوى فيه بين العودة إلى الكفر والإلقاء في النار في الكراهة، واختيار يوسف للسجن فرارٌ حقيقيٌّ من الأمكنة والبيئات التي تحاصره فيها الشهوة من كل مكان؛ لأنها وإن كانت قصورًا وأنهارًا إلا أنها كالنيران، وصار السجن الذي زعم عباد الشهوات أنه هو الملجأ الوحيد ليوسف ليعتصم من إجرامهم ككهف فتية الكهف: ما أجمله! وأمتعه! ما أرفقه! وما ذلك إلا لأنه مقابل معصية الله..

لقد كان تفضيل يوسف عليه السلام للسجن على كل الدنيا كتفضيل أصحاب الكهف للكهف على كل متع الحياة، فقد وجد أصحاب الكهف في الكهف كل راحةٍ وجمالٍ ورحمةٍ، واسمع إلى الوصف القرآني يقول الله تعالى فيه: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾ (الكهف)، ولذا قرن ابن رجب في لطائف المعارف بين هذه المقالة العظيمة من يوسف عليه السلام وبين أقوالٍ لقومٍ نُسِبُوا إلى الصلاح، فساروا على درب العظمة اليوسفية فقال: "وقال يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ (يوسف: 33)، وسئل ذو النون المصري: متى أحب ربي؟ قال: إذا كان ما يكرهه أَمَرّ عندك من الصبر"[1]. ومثل ذلك قول بديع الزمان النورسي: "أيها الشقاة! يا من تضيّقون عليّ الخناق! اعملوا ما شئتم، واقضوا ما أنتم قاضون، فلا أهمية لعملكم، كل المصائب التي تنزل بنا هينة تافهة، بل إنها عناية إلهية محضة ورحمة بعينها".

هذا الارتباط اللفظيُّ بين السِّجن وحُبُّ هذا الشابُّ المخبت المنيب له مقابل إجرام المعصية لا يُقصَد معناه اللفظي المباشر بل يُقصَد به المقابلة والمشاكلة، ومثال هذا التركيب الرائع في مقابلة تهديد امرأة العزيز كمثل قوله تعالى ردًّا على المستهزئين والساخرين والمخادعين: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥﴾ (البقرة)، ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾(النساء: 142)، ﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٩﴾(التوبة)، ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦﴾ (الطارق)، وهذا التركيب

1- لطائف المعارف (ص: 153)

العربي البليغ العظيم يُرَدِّدُ فيه ما قاله الصالحون من قبل: في أقل قليل أدل دليل.. أجل!

كل محبوبٍ سوى الله سرف وهمومٌ وغمومٌ وأسف
كل محبوبٍ فمنه لي خلف ما خلا الرحمن ما منه خلف
إن للحبِّ دلالاتٍ إذا ظهرت من صاحب الحب عرف
صاحب الحبِّ حزينٌ قلبه دائم الغصة مهمومٌ دَنِف
همه في الله لا في غيره ذاهل العقل وبالله كَلِف
أشعث الرأس خميصٌ بطنه أصفر الوجه وللدمع ذرف
دائم التذكير من حب الذي حبه غاية غايات الشرف
فإذا أمعن في الذكر له (وعلاه الشوق من داء كشف)
باشر المحراب يشكو بثه وأمام الله مولاه وقف
قائم قدامه منتصبًا لهجا يتلو بآيات الصحف
راكعًا طورًا وطورًا ساجدًا باكيًا والدمع في الأرض وكف
أورد القلب على البحر الذي فيه حب الله حقًّا فغرف
ثم جالت كفه في شجر ينبت الحب فسمى واقتطف

ولذا يمكن القول بأن الغلو المذموم ظاهرٌ في قول القائل: "لو سأل الله يوسفُ العافيةَ لوهبها لكنه سأل السجن.."، فهذا الكلام يدل على غلو واضح في الدين، ونسيانٍ لبدهيات الابتلاء للمؤمنين.. وفيه اجتراء على القدوات العظام من الأنبياء الكرام.. ولا أدري كيف يستبيح أحد أن يستدرك على أحد أعظم دعاة التوحيد وقادة الإسلام في كل عصرٍ في مواجهة الاعتداء وأمام كل متاعٍ وحطام؟ وأستغفر الله من الاجتراء على من جعلهم الله في مقعد الصدق.

ومثل هذا الغلو ما ذكره أبو إسحاق الختلي في (المحبة لله) عن رابعة التي نظرت إلى

رياح القيسي، وهو يقبل صبيًّا، فقالت: أتحبه؟ قال: نعم. قالت: ما كنت أحسبك أن في قلبك موضعًا فارغًا لمحبة غيره تبارك اسمه. قال: فصرخ رياح، وسقط مغشيًا عليه. ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه وهو يقول: رحمة منه تعالى ألقاها في قلوب العباد للأطفال[1]. فإن صح مثل هذا عنها فهو ينافي حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفعله، فماذا يمكن أن تقول وهي تعلم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل أولاده، وأولاد بناته، ونساءه؟

1- المحبة لله لأبي إسحاق الحتلي (ص: 98) .

المشهد الثاني والعشرون

عظمة التعبير اليوسفي في الصمود أمام سعار الشهوانيين

مشهد: فضح التآمر المجتمعي على إشاعة الرذيلة، والوعي بوجوده

ومن عظمة التعبير اليوسفي مما قاله يوسف -عليه السلام- مجملًا محسنًا مبينًا للواقع المتآمر حوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾(يوسف: 33).. انظر إلى هذه الكلمة القرآنية التي اختصرت مؤامرة مجتمع كامل: (يدعونني) .. إنها تحتمل أمرين قد يكونان مقصودين في تعبير الشابُّ الهمام يوسف -عليه الصلاة والسلام-:

الأمر الأول: اشتراك المجتمع في الإفساد العام للشباب والفتيات:

فقد بين الله تعالى المسؤولية العامة للمجتمع بفئاته المختلفة في إفساد الشباب، وذلك من خلال جعل ﴿يَدْعُونَنِيٓ﴾ صيغةً لجمع المذكر، فالواو واو الجماعة، والنون علامة رفع، ولم يأتِ بصيغة المؤنث للدلالة على فساد المجتمع وتحول مؤسساته الاجتماعية والثقافية ومراكز إدارة القرار فيه إلى منابر إلى الدعوة المباشرة أو غير المباشرة للرذيلة..

عجيبة هذه الكلمة ﴿يَدْعُونَنِيٓ﴾ إنها تبين أن هناك أطرافًا أخرى اشتركت أو تواطأت في مؤامرة الفسق والفجور لتُوقِعَ يوسف -عليه السلام- في فخاخها، سواء أكان ذلك بصورة مباشرة، أم بتغاضيهم عن العفن الذي تتسم به سيدات بيوتهم، وفتيات قصورهم؛ ولذا أتى بصيغة الفعل المسند إلى المذكر ليبين أن الفساد الأخلاقي أصبح سمة المجتمع حواليه، وليبين أن الذين يتبعون الشهوات هم من يشوش على مسيرة الرشد في المجتمع، واستنبط ابن تيمية مثل ذلك في المشهد العام للقصة، فقال في مجموع الفتاوى: "وَقَوْلُهُ: ﴿يَدْعُونَنِيٓ﴾ بِصِيغَةِ جَمْعِ التَّذْكِيرِ وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ بِصِيغَةِ جَمْعِ التَّأْنِيثِ، وَلَمْ يَقُلْ مِمَّا يَدعِينَنِي إِلَيْهِ

دَلِيلٌ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا، وَأَنَّهُ كَانَ مِنْ الذُّكُورِ مَنْ يَدْعُوهُ مَعَ النِّسَاءِ إلَى الْفَاحِشَةِ بِالْمَرْأَةِ، وَلَيْسَ هُنَاكَ إلَّا زَوْجُهَا، وَذَلِكَ أَنَّ زَوْجَهَا كَانَ قَلِيلَ الْغَيْرَةِ أَوْ عَدِيمَهَا، وَكَانَ يُحِبُّ امْرَأَتَهُ وَيُطِيعُهَا؛ وَلِهَذَا لَمَّا اطَّلَعَ عَلَى مُرَاوَدَتِهَا قَالَ: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ٢٩﴾، فَلَمْ يُعَاقِبْهَا، وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ يُوسُفَ حَتَّى لَا تَتَمَكَّنَ مِنْ مُرَاوَدَتِهِ، وَأَمَرَ يُوسُفَ أَنْ لَا يَذْكُرَ مَا جَرَى لِأَحَدٍ، مَحَبَّةً مِنْهُ لِامْرَأَتِهِ، وَلَوْ كَانَ فِيهِ غَيْرَةٌ لَعَاقَبَ الْمَرْأَةَ... وهذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَزَلْ مُتَمَكِّنَةً مِنْ مُرَاوَدَتِهِ وَالْخَلْوَةِ بِهِ مَعَ عِلْمِ الزَّوْجِ بِمَا جَرَى، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الدِّيَاثَةِ، ثُمَّ إنَّهُ لَمَّا حُبِسَ فَإِنَّمَا حُبِسَ بِأَمْرِهَا، وَالْمَرْأَةُ لَا تَتَمَكَّنُ مِنْ حَبْسِهِ إلَّا بِأَمْرِ الزَّوْجِ فَالزَّوْجُ هُوَ الَّذِي حَبَسَهُ؛ وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهَا قَالَتْ: هَذَا الْقِبْطِيُّ هَتَكَ عِرْضِي فَحَبَسَهُ؛ وَحَبَسَهُ لِأَجْلِ الْمَرْأَةِ مُعَاوَنَةً لَهَا عَلَى مَطْلَبِهَا لِدِيَاثَتِهِ وَقِلَّةِ غَيْرَتِهِ، فَدَخَلَ هُوَ فِي مَنْ دَعَا يُوسُفَ إلَى الْفَاحِشَةِ. فَعُلِمَ أَنَّ يُوسُفَ لَمْ يَتْرُكِ الْفَاحِشَةَ لِأَجْلِهِ وَلَا لِخَوْفِهِ مِنْهُ، بَلْ قَدْ عُلِمَ يَقِينًا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَخَافُ مِنْهُ، وَأَنَّ يُوسُفَ لَوْ أَعْطَاهَا مَا طَلَبَتْ لَمْ يَكُنِ الزَّوْجُ يَدْرِي، وَلَوْ دَرَى فَلَعَلَّهُ لَمْ يَكُنْ يُنْكِرْ؛ فَإِنَّهُ قَدْ دَرَى بِالْمُرَاوَدَةِ وَالْخَلْوَةِ الَّتِي هِيَ مُقْتَضِيَةٌ لِذَلِكَ فِي الْغَالِبِ فَلَمْ يُنْكِرْ، وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ هَمَّ بِعُقُوبَةِ يُوسُفَ فَكَانَتْ هِيَ الْحَاكِمَةَ عَلَى الزَّوْجِ الْقَاهِرَةَ لَهُ"[1].. فهذه المعاني المتثالة تصور المشهد كاملًا إذا جعلنا كلمة يوسف إشارة إلى جمع الذكور في قوله ﴿يَدۡعُونَنِيٓ﴾.

الأمر الثاني: بيان الدور الإفسادي الخطير للمرأة إذا تم استقطابها من مؤسسات الإجرام

ونفهم ذلك من الآية إذا جعلنا الكلمة ﴿يَدۡعُونَنِيٓ﴾ معبرةً عن خصوص النسوة الحاضرات والغائبات، وَأَسْنَدَ فِعْلَ يَدْعُونَنِي إلَى نُونِ النِّسْوَةِ، فَالْوَاوُ الَّذِي فِيهِ هُوَ حَرْفٌ أَصْلِيٌّ وَلَيْسَتْ وَاوَ الْجَمَاعَةِ، وَالنُّونُ لَيْسَتْ نُونَ رَفْعٍ لِأَنَّهُ مَبْنِيٌّ لِاتِّصَالِهِ بِنُونِ النِّسْوَةِ، وَوَزْنُهُ يَفْعُلْنَ، وَأَسْنَدَ الْفِعْلَ إلَى ضَمِيرِ جَمْعِ النِّسَاءِ مَعَ أَنَّ الَّتِي دَعَتْهُ امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، إمَّا لِأَنَّ تِلْكَ الدَّعْوَةَ مِنْ رَغَبَاتِ صِنْفِ النِّسَاءِ فَيَكُونُ عَلَى وَزَانِ جَمْعِ الضَّمِيرِ فِي ﴿كَيۡدَهُنَّ﴾، وَإِمَّا لِأَنَّ النِّسْوَةَ اللَّاتِي جَمَعَتْهُنَّ

1- مجموع الفتاوى (15/ 120) .

امْرَأَةُ الْعَزِيزِ لَمَّا سَمِعْنَ كَلَامَهَا تَمَالَأْنَ عَلَى لَوْمِ يُوسُفَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، وَتَحْرِيضِهِ عَلَى إِجَابَةِ الدَّاعِيَةِ، وَتَحْذِيرِهِ مِنْ وَعِيدِهَا بِالسِّجْنِ. وَعَلَى وَزَانِ هَذَا يَكُونُ الْقَوْلُ فِي جَمْعِ الضَّمِيرِ فِي ﴿كَيْدَهُنَّ﴾ أَيْ: كَيْدَ صِنْفِ النِّسَاءِ، مِثْلَ قَوْلِ الْعَزِيزِ: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، أَيْ: كَيْدَ هَؤُلَاءِ النِّسْوَةِ[1].

وقد حرص أولياء الشيطان على إفساد نساء المسلمين ليكسبوا بذلك ما لا يمكنهم كسبه بأعتى الأسلحة، وليدمروا المجتمع من خلال إرباك عقل المرأة المسلمة وعواطفها، وحشدها في اتجاه غير صحيح، ولذا جاء في بروتوكلات حكماء صهيون: (علينا أن نكسب المرأة ففي أي يوم مدت إلينا يدها ربحنا القضية).

1- التحرير والتنوير (12/ 266) .

المشهد الثالث والعشرون

عَظَمة التعبير اليوسفي في الصمود أمام سعار الشهوانيين

إعلان العجز والافتقار التام أمام الملك القدوس السلام

على الرغم من نجاح هذا الشابُّ الرائع العظيم في ابتلاءٍ سابقٍ شديدٍ حيث خلت به (التي هو في بيتها) إلا أنه لم يركن إلى نجاحه، أو يثق بقدرته، بل هرع لاجئًا إلى ربه كرةً أخرى يردد دعاءه غير معتمدٍ على علو همته السابقة، وقوة عزيمته الواثقة، بل استصحب أن صرف كيدهن لا يكون من عند نفسه بل من قوة ربه وقدرته فقال: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾، وهذا -وعزة الرحمن- من أجلِّ ما يملأ الإعجاب بيوسف في الأكوان.. انظر إليه.. ما زال معتمدًا على ربه لا يردد شعار الغرور الدال على شدة الثقة بالنفس.. إنه نفس الدرب الأخضر الفسيح الذي علمنا إياه النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا ما فهمه السعدي من هذا اللجوء، فقال: "ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته، لقول يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾"[1].

تفصيل الشكوى من البلوى ترفع للملك الأعلى:

واعجب إن كنت متعجِّبًا من هذا الشابُّ إلى مسارعته إلى روضات الرضى الإلهية في مناجاته ونداءاته أمام الشر وشهواته، حيث يلهج قائلًا: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ (يوسف)، وهذه الجملة المحكمة العظيمة تُعَبِّر عن استعاذةٍ قويةٍ جليلة فيها جمال الإطناب والتفصيل بما لا نجده في الاستعاذة المجملة التي سبقت في قوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾

1- اتفسير السعدي ص408.

(يوسف: 23)، وذلك لمناسبة المقام، وذلك لشدة الإغراء، ومحاصرة المجتمع وكبار قياداته من النساء، وتطاول الزمن في هذه المحنة.. ويا لطول زمن التزيين للشهوات المحرمة.. حيث تتم المراهنة على كسر الإرادة الصلبة.. أمام ذلك كله أعلن يوسف النداء فقال:﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

فجُمْلَةُ: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ﴾ خَبَرٌ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّخَوُّفِ وَالتَّوَقُّعِ الْتِجَاءً إِلَى اللهِ، وَمُلَازَمَةً لِلْأَدَبِ نَحْوَ رَبِّهِ بِالتَّبَرُّؤِ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، وَالْخَشْيَةِ مِنْ تَقَلُّبِ الْقَلْبِ، وَمِنَ الْفِتْنَةِ بِالْمَيْلِ إِلَى اللَّذَّةِ الْحَرَامِ، ولا يُستطاع الهرب من كيد النساء وهو عظيم، ولا يمكن العصمة من وسوسات من يغري به وهو الشيطان الرجيم، إلا بالاستعاذة بالله السميع العليم: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ (الأعراف)، وكل من استعاذ به تعالى مؤمنًا مخلصًا أعاذه، فكيف إذا كان من أرسله لهداية عباده ؟

انظر إليه لكأنه يقول: رب ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ﴾ أنت الآن، وفيما يستقبل من الزمان ﴿عَنِّي كَيۡدَهُنَّ﴾ الشديد ومكرهن الذي يفل الحديد، وتدبيرهن الذي يُردن به الخبث احتيالًا على الوصول إلى قصدهن خديعة وغرورًا ﴿أَصۡبُ﴾ أي: أمل ميلًا عظيمًا فيصير الحرام أمرًا محبوبًا ﴿إِلَيۡهِنَّ﴾ لما جبل الآدمي عليه من الميل النفساني إلى مثل ذلك، ومتى انخرق سياج صيانته بواحدة تبعها أمثالها، واتسع الخرق على الراقع، ولذلك قال: ﴿وَأَكُن﴾ أي كونا هو كالجبلة ﴿مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ الغريقين في الجهل بارتكاب ما يريد هذا المجتمع الفاسد من العفن وغشيان المحن[1].. يتخوف على نفسه أن يكون من الجاهلين من سفهاء الأحلام الذين يتبعون شهواتهم الحيوانية كالأنعام.

لقد تصور يوسف عليه الصلاة والسلام ضراوة المعركة بين الشيطان وجنده العسكري، وحزبه الثقافي الفني المكون من أولئك النسوة، وبين حقه وطهره وإيمانه، فلم تعد امرأة العزيز وحدها تراوده، بل عادت نسوة تلك الطبقة بجملتها تطارده! بل إن فعلهن يعكس انتكاسة

1- نظم الدرر 10 /76.

المجتمع حوله.. ومن خلال ذلك التصرف في أمر يوسف -على الرغم مما بدا من براءته- ذلك التصرف المقصود به مواراة الفضيحة ودفن معالمها، ولا يهم أن يذهب بريء كيوسف ضحيتها: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾[1].

العسكر الذي لا يغلب:

لقد توجه هذا الشابُّ إلى ربه بصدق الإخبات والإنابة والمتاب، فكانت الاستجابة الإلهية للأنفاس الطاهرة لهذا الشابُّ سريعة حيث قال الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤﴾(يوسف)،"لمّا رجع إلى الله بصدق الاستغاثة تداركه الله سبحانه بوشيك الإغاثة"[2]، ولم لا !! والقلوب الصالحة والأدعية الصادقة هي العسكر الذي لا يغلب، والجند الذي لا يُهزم، كما تقرر في الفقه التيميّ لأحوال الأدعية والأذكار[3].

فبعد أن يبذل عباد الله المصطفون الأخيار أقصى درجات المجاهدة للباطل.. بعد أن يصدق ثباتهم أمام إغرائه المتدفق كالسيل الجرار يستغيثون ربهم فتهب عليهم نسائم التوفيق، ويأتيهم أنس الملك الودود ليكون أعظم من إعانة أعز الأصدقاء وأحب الرفقاء، ويكون ذلك "بطريقة إيجابية ومادية لدى عباده، في اللحظات الحاسمة، لكي يصرف عنهم الإغراءات السيئة:﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ﴾؛ وحتى يجنبهم السقوط في الفاحشة: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾، ولكي يقوي إرادتهم المترددة: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـًٔا قَلِيلًا ٧٤﴾.

في هذه اللحظات الصعبة يفجر الله في أعينهم نورًا باهرًا يحمل إليهم مزيدًا من الوضوح: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾، فهو يزرع الثبات في القلب: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾،

1- في ظلال القرآن (4/ 1955) .
2- لطائف الإشارات = تفسير القشيري (2/ 184) .
3- قال ابن تيمية -رحمه الله- في مجموع الفتاوى (28 / 644): "القلوب الصادقة والأدعية الصالحة هي العسكر الذي لا يغلب"

ويجعل الإيمان أجمل في أعينهم، وأحب إلى قلوبهم: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾،ويكره إليهم ﴿ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾ "[1]، فقد ذكر تعَالَى مَا كَانَ مِنْ مُرَاوَدَةِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ نَفْسِهِ، وَطَلَبِهَا مِنْهُ مَا لَا يَلِيقُ بِحَالِهِ وَمَقَامِهِ وَهِيَ فِي غَايَةِ الْجَمَالِ وَالْمَالِ وَالْمَنْصِبِ وَالشَّبَابِ، وَكَيْفَ غَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ عَلَيْهَا وَعَلَيْهِ، وَتَهَيَّأَتْ لَهُ، وَتَصَنَّعَتْ، وَلَبِسَتْ أَحْسَنَ ثِيَابِهَا، وَأَفْخَرَ لِبَاسِهَا، وَهِيَ مَعَ هَذَا كُلِّهِ امْرَأَةُ الْوَزِيرِ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَبِنْتُ أُخْتِ الْمَلِكِ "الرَّيَّانِ بْنِ الْوَلِيدِ" صَاحِبِ مِصْرَ. وَهَذَا كُلُّهُ مَعَ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَابٌّ بَدِيعُ الْجَمَالِ وَالْبَهَاءِ، إِلَّا أَنَّهُ نَبِيٌّ مِنْ سُلَالَةِ الْأَنْبِيَاءِ، فَعَصَمَهُ رَبُّهُ عَنِ الفحشاء، وحماه عن مَكْرِ النِّسَاءِ، فَهُوَ سَيِّدُ السَّادَةِ النُّجَبَاءِ السَّبْعَةِ الْأَتْقِيَاءِ، الْمَذْكُورِينَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ، فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ: ((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ مُعَلَّقٌ قَلْبُهُ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ))[2].

وهنا نعلم سر تكرار كلمة (رب) في هذه القصة الماتعة الرائعة، واسمع إلى قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤﴾ (يوسف)، وتأمل فيها مراتٍ وكراتٍ لترى فضيلة يوسف عليه السلام من خلال هذه الآيات، وكيف اختار السجن على ما ذكر، مع قوة الدواعي وصرف الموانع، ولا يعرف لأحد نظير هذا، حيث ترى في كلامه التصريح بأن النسوة دعونه من غير امرأة العزيز، فمنها المكر أولًا، ومنهن الكيد ثانيًا، وتعلم ما حباه الله من عقلٍ تقديريٍّ بواقع الأمور والأحداث وعواقبها، ومعرفته عليه السلام بنفسه وبربه، وأن القوة التي فيه لا تنفع إلا إن أمدَّه الله بمدد منه [3].

1- دستور الأخلاق في القرآن (ص: 215) .
2- البداية والنهاية ط الفكر (1/ 203)، والحديث رواه البخاري 1 /168 برقم 660.
3- الدرر السنية في الأجوبة النجدية (13/ 246).

وكيف لا يلجأ المؤمن إلى ربه للحماية والرعاية أمام أهوال هذا الإغراء؟ والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يبين قبح العذاب الحالّ بمن يأتي الزنا من النساء والرجال، فيقول: ((إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ ... حتى قال: فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ ، فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ ، فَاطَّلَعْنَا فِيهِ فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَؤا. فلما سأل عنهم الملائكة ، قالوا : وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ الْعُرَاةُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ فَإِنَّهُمْ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي)). والله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩﴾ (الفرقان).

وقد تفكر الأوزاعي فيما أعطى الله عباده من النعم، وجرأتهم على الاستعانة بها على المعصية، فأشرق من وعظه نور قال فيه: أَيُّهَا النَّاسُ! تَقَوَّوْا بِهَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي أَصْبَحتُم فِيْهَا عَلَى الهَرَبِ مِنْ نَارِ اللهِ المُوْقَدَةِ، الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ، فَإِنَّكُم فِي دَارِ التَّوَاءُ فِيْهَا قَلِيْلٌ، وَأَنتُم مُرْتَحِلُوْنَ، وَحَلاَئِفُ بَعْدَ القُرُوْنِ الَّذِيْنَ اسْتَقَالُوا مِنَ الدُّنيَا زَهْرَتَهَا، كَانُوا أَطوَلَ مِنْكُم أَعمَارًا، وَأَجَدَّ أَجسَامًا، وَأَعْظَمَ آثَارًا، فَجَدَّدُوا الجِبَالَ، وَجَابُوا الصُّخُورَ ، وَنَقَّبُوا فِي البِلاَدِ، مُؤَيَّدِيْنَ بِبَطشٍ شَدِيْدٍ، وَأَجسَامٍ كَالعِمَادِ، فَمَا لَبِثَتِ الأَيَّامُ وَاللَّيَالِي أَنْ طَوَتْ مُدَّتَهُم، وَعَفَّتْ آثَارَهُم، وَأَحْوَتْ مَنَازِلَهُم، وَأَنْسَتْ ذِكْرَهُم، فَمَا تُحِسُّ مِنْهُم مِنْ أَحَدٍ، وَلاَ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا. كَانُوا بِلَهوِ الأَمَلِ آمِنِيْنَ، وَلِمِيْقَاتِ يَوْمٍ غَافِلِيْنَ، وَلِصَبَاحِ قَوْمٍ نَادِمِيْنَ، ثُمَّ إِنَّكُم قَدْ عَلِمْتُم مَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِم بَيَاتًا مِنْ عُقُوبَةِ اللهِ، فَأَصْبَحَ كَثِيْرٌ مِنْهُم فِي دِيَارِهِم جَاثِمِيْنَ، وَأَصْبَحَ البَاقُوْنَ يَنْظُرُوْنَ فِي آثَارِ نِقْمِهِ، وَزَوَالِ نِعَمِهِ، وَمَسَاكِنَ خَاوِيَةً، فِيْهَا آيَةٌ لِلَّذِيْنَ يَخَافُوْنَ العَذَابَ الأَلِيمَ، وَعِبرَةٌ لِمَنْ يَخشَى[1].

1- سير أعلام النبلاء ط الرسالة (7/ 117) .

المشهد الرابع والعشرون

الاستجابة للدعاء لا تعني عدم الابتلاء

لما لجأ يوسف عليه السلام إلى ربه مستغيثًا مستجيرًا أجاب الله دعاءه، إلا أن الله يعلمنا أن الاستجابة لا تعني عدم الابتلاء، بل الابتلاء هو طريق الأنبياء حيث قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾ (يوسف).. نعم إجابة الدعاء لا تعني عدم الابتلاء، ولذا قيل بأن رجلًا أتى الشافعي رحمه الله فقال: يا أبا عبد الله، أيُّما أفضل للرجل: أن يمكن أو أن يبتلى؟ فقال الشافعي: لا يمكَّن حتى يبتلى. فإن الله ابتلى نوحًا، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمدًا صلوات الله وسلامه عليهم، فلما صبروا مكنهم، فلا يظنن أحد ألبتة أنه يخلص من الألم.

فانظر إلى قوله تعالى:﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ ثُمَّ هُنَا لِلتَّرْتِيبِ الرُّتْبِيِّ، كَمَا هُوَ شَأْنُهَا فِي عَطْفِ الْجُمَلِ، فَإِنَّ مَا بَدَا لَهُمْ أَعْجَبُ وأعظم بَعْدَمَا تَحَقَّقَتْ بَرَاءَتُهُ.. فهذا عزيز مصر قد ظَهَرَ لَهُ بَرَاءَةُ سَاحَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَمْ يَتَعَرَّضْ لَهُ، ولكنه يا للعجب لم يفصل بين يوسف –عليه الصلاة والسلام– وبينها، فَاحْتَالَتِ الْمَرْأَةُ بَعْدَ ذَلِكَ بِجَمِيعِ الْحِيَلِ حَتَّى تَحْمِلَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى مُوَافَقَتِهَا عَلَى مُرَادِهَا، فَلَمْ يَلْتَفِتْ يُوسُفُ إِلَيْهَا، فَلَمَّا أَيِسَتْ مِنْهُ احْتَالَتْ فِي طَرِيقٍ آخَرَ وَقَالَتْ لِزَوْجِهَا: إِنَّ هَذَا الْعَبْدَ الْعِبْرَانِيَّ فَضَحَنِي فِي النَّاسِ يَقُولُ لَهُمْ: إِنِّي رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَأَنَا لَا أَقْدِرُ عَلَى إِظْهَارِ عُذْرِي، فَإِمَّا أَنْ تَأْذَنَ لِي فَأَخْرُجَ وَأَعْتَذِرَ، وَإِمَّا أَنْ تَحْبِسَهُ كَمَا حَبَسْتَنِي، فَعِنْدَ ذَلِكَ وَقَعَ فِي قَلْبِ الْعَزِيزِ أَنَّ الْأَصْلَحَ حَبْسُهُ حَتَّى يَسْقُطَ عَنْ أَلْسِنَةِ النَّاسِ ذِكْرُ هَذَا الْحَدِيثِ ،وَحَتَّى تَقِلَّ الْفَضِيحَةُ، فَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾؛ لِأَنَّ الْبَدَاءَ عِبَارَةٌ عَنْ تَغَيُّرِ الرَّأْيِ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ فِي الْأَوَّلِ، وَالْمُرَادُ مِنَ الْآيَاتِ بَرَاءَتُهُ بِقَدِّ الْقَمِيصِ مِنْ دُبُرٍ، وَإِلْزَامُ الْحُكْمِ إِيَّاهَا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨﴾ (يوسف)، وَإِنَّمَا بَدَا لَهُمْ أَنْ يَسْجُنُوا يُوسُفَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– حِينَ شَاعَتِ الْقَالَةُ عَنِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ فِي شَأْنِهِ، فَكَانَ ذَلِكَ عَقِبَ انْصِرَافِ

النِّسْوَةِ، لِأَنَّهَا خَشِيَتْ إِنْ هُنَّ انْصَرَفْنَ أَنْ تَشِيعَ الْقَالَةُ فِي شَأْنِهَا وَشَأْنِ بَرَاءَةِ يُوسُفَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، فَرَامَتْ أَنْ تُغَطِّيَ ذَلِكَ بِسِجْنِ يُوسُفَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- حَتَّى يَظْهَرَ فِي صُورَةِ الْمُجْرِمِينَ بِإِرَادَتِهِ السُّوءَ بِامْرَأَةِ الْعَزِيزِ، وَهِيَ تَرْمِي بِذَلِكَ إِلَى تَطْوِيعِهِ لَهَا.

فانظر كيف خالف هذا المجتمع الجاهلي داعي السداد واستبدلوا الغيّ بالرشاد، وأودعوا الشريف السجن، وبقي السفيه يعيث في الأرض الفساد..

ولكن كم بقي يوسف عليه السلام في السجن ؟

لقد قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾. والْحِينُ: وَقْتٌ مِنَ الزَّمَانِ غَيْرُ مَحْدُودٍ، يَقَعُ عَلَى الْقَصِيرِ مِنْهُ وَعَلَى الطَّوِيلِ.. فتأمله وقد بقي سنين عددًا محافظًا على عفته صابرًا لبيان صدق دعوته.. يا للبطولة والنقاء..

"والنسوة.. نسوة هذا المجتمع بكل ملامحه.. اللغط بسيرة امرأة العزيز وفتاها الذي راودته عن نفسه، بعد ما شغفها حبا! والاستنكار الذي تبدو فيه غيرة النسوة من امرأة العزيز أكثر مما يبدو فيه استنكار الفعلة! ثم وهلتهن أمام طلعة يوسف، ثم إقرارهن الأنثوي العميق بموقف المرأة التي كن يلغطن بقصتها ويستنكرن موقفها، وإحساس هذه المرأة بهذا الإقرار الذي يشجعها على الاعتراف الكامل، وهي آمنة في ظل استسلامهن لأنوثتهن كما تصنعها بيئتهن الخاصة وتوجهها، ثم ميلهن كلهن على يوسف بالإغراء والإغواء، رغم ما أنطقتهن به الوهلة الأولى من نظافته وطهارته البادية من قولهن: «حاشَ لِلَّهِ! ما هذا بَشَرًا، إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» ..

فلم تعد امرأة العزيز وحدها تراوده، ولكن عادت نسوة تلك الطبقة بجملتها تطارده! والبيئة.. التي تتجلى سماتها من خلال ذلك كله، ثم من خلال ذلك التصرف في أمر يوسف، على الرغم مما بدا من براءته. ذلك التصرف المقصود به مواراة الفضيحة ودفن معالمها ولا

يهم أن يذهب بريء كيوسف ضحيتها:

﴿بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾ (يوسف)"[1].

يوسف أيها الشابُّ التقي النقي :

كم بقيتَ صابرًا عن المعصية وهي تتبرج بين يديك، كم أظهرت إغراءها، وتبرجت بإغوائها وأنت بالله معتصم، وبالصبر على طاعته مستمسك ملتزم؟!

كم مرة حاول الشيطان أن يبين لك طريقًا واحدًا للخروج من ظلم بني الإنسان في غياهب السجن، وهو بالإرسال إلى عابدات الشهوات فصرفت الكيد المبين ، ووسوسة الشياطين.

كم صبرت على آلام السجون، وعلى الإهانات وإجرام من هم في غيهم يعمهون، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧﴾ (يونس).

ها هو الرازي يقف متعجبًا أمام هذا القصص الحق فيقول في كتاب اللوامع: "**وعلى الجملة فكل أحوال يوسف عليه الصلاة والسلام لطف في عنف، ونعمة في طي بلية ونقمة، ويسر في عسر، ورجاء في يأس، وخلاص بعد لات مناص، وسائق القدر ربما يسوق القدر إلى المقدور بعنف، وربما يسوقه بلطف، والقهر والعنف أحمد عاقبةً وأقل تبعةً**"[2].

هنا تنتهي المرحلة الثانية من مراحل قصة يوسف عليه الصلاة والسلام.. تحكي قصةً

1- في ظلال القرآن (4/ 1944) .

2- هذا النقل بواسطة نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (10/ 79) ، والكتاب المذكور هو المسمى: لوامع البينات شرح أسماء الله والصفات.

من أحسن القصص.. تقرؤها فيضيء سناها عقول الشباب الحائرة أمام جيوش الفتن المعاصرة.. تسمعها فتراها مناراتٍ للخلاص أمام شياطين الشهوات الحاقدة الساهرة.. ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ (يوسف)

اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك.. اجعلنا من عبادك المصطفين الأخيار المخبتين المنيبين أولي الأيدي والأبصار يا رحيم يا غفار.

(وإلى الله –تعالى ذكره– جزيل الضراعة والمنة بقبول ما منه لوجهه، والعفو عما تخلله من تزين وتصنع لغيره)[1] .

وصلى الله تعالى وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين .
والحمد لله رب العالمين.

1- من خاتمة كتاب الشفا للقاضي عياض 2 / 312 .

الفهرس

يوسف –عليه السلام– في بيت العزيز 3

مقدمة 5

تمهيد: من خصائص القصة القرآنية: 11

الخاصية الأولى: تكوين المرجعية الحقيقية في القصص التاريخية: 11

الخاصية الثانية: القصص القرآني يتميز بأهدافه السامية، وغاياته التي تبني الحياة، وتنمي الفكر: 12

الخاصية الثالثة: جمال التصوير وصفاء التعبير مع الواقعية الحقيقية: 13

الخاصية الرابعة: الصراحة العالية في معالجة الشهوات الإنسانية دون الخروج عن غلاف الطهارة الذاتية: 14

الخاصية الخامسة: التشويق في القصة القرآنية وفق أسلوبٍ مبتكرٍ لبناء النفس الإنسانية: 15

الخاصية السادسة: الحركية الجاذبة في الصور القرآنية المتدفقة: 16

الخاصية السابعة: البناء التربوي الذي يتم من خلال أحداث القصة ليحقق الإشباع القلبي والعقلي: 17

الخاصية الثامنة: إظهار المفاجآت المباغتة في مكانها المناسب من القصة القرآنية: 18

الخاصية التاسعة: قوة الاختيار للكلمات التي تحمل دلالاتٍ عميقة: 19

مشاهد القصة: المشهد الأول: مع الفتى في طفولته وقصته: 23

المشهد الثاني: يوسف بين تجار البشر وحفظ المليك المقتدر 26

المشهد الثالث: من ظلمة الجب وضغائن الصدور إلى راحة الجسد وسعة القصور . 32

المشهد الرابع: قانون العظمة الإلهية: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ 38

المشهد الخامس: بلوغ الأشد وتكامل صفات الجمال والجلال: 44

المشهد السادس: المراحل الخطيرة لإغواء الجاذبية الجنسية. 51

المشهد السابع: عظمة البيان اليوسفي أمام سعار محبي الشهوات المحرمة: 58

المشهد الثامن: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ انظر إلى لطف الله وحبّه. 66

المشهد التاسع: العطايا والحماية والنعماء في ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ 72

المشهد العاشر: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾.. إنه مشهد الاستباق إلى الله العظيم الخلاق.. إنها الخُطا المسرعة إلى النجاح والإشراق: 78

المشهد الحادي عشر: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ الخطط الآثمة الماكرة للحظات الفاجرة 83

المشهد الثاني عشر: التحقيق في القضية (العون الإلهي ناتجٌ عن اللجوء الصادق): 89

المشهد الثالث عشر: عندما يظهر الله براءة الأطهار 93

المشهد الرابع عشر: إشاعات مجتمع الطبقات المترفة، وفتنة المغامِرات العابثة الهابطة: 98

المشهد الخامس عشر: خطة المكر الأنثوية المضادة في مغامرات عابدات الشهوات: 105

المشهد السادس عشر: بين الهوى والعقل: الاستسلام لعبادة الصور 109

المشهد السابع عشر: استحواذ الشيطان: خطط الماضي إلى المستقبل في الهوان والعصيان 114

قبل المشهد الثامن عشر: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ 120

المشهد الثامن عشر: يا لقوة الثبات المتنزلة عليه: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ 127

المشهد التاسع عشر: عظمة التعبير اليوسفي في الصمود أمام سعار الشهوانيين: 133

المشهد العشرون: عظمة التعبير اليوسفي في الصمود أمام سعار الشهوانيين: مشهد: تفضيل السجن على شهوة المعصية يدل على أعظم درجات طلب العافية: 140

المشهد الواحد والعشرون: عظمة التعبير اليوسفي في الصمود أمام سعار الشهوانيين: مشهد: تقديم عبارة (السجن أحب إلي) على ما بعدها: 144

المشهد الثاني والعشرون: عظمة التعبير اليوسفي في الصمود أمام سعار الشهوانيين: مشهد: فضح التآمر المجتمعي على إشاعة الرذيلة، والوعي بوجوده: 149

المشهد الثالث والعشرون: عَظَمة التعبير اليوسفي في الصمود أمام سعار الشهوانيين: إعلان العجز والافتقار التام أمام الملك القدوس السلام: 152

المشهد الرابع والعشرون: الاستجابة للدعاء لا تعني عدم الابتلاء: 157

جمعية البلاغ الثقافية
Al-Balagh Cultural Association

IslamOnline.net
إسلام أون لاين.نت

/ISLAMONLINE
/ISLAMONLINE_NET
@ISLAMONLINE
/ISLAMONLINE

islamonline.net/apps

لأي إستفسار أو لطلب نسخ

500 44 304

T : +974 44 56 7777 F : +974 445 67766 P.O.Box : 22212 Doha-Qatar
Email : info@islamonline.net Web : balaghcs.org

Al-Balagh Cultural Association